غسان كامل ونوس

أحمر... أبيض

قصص قصيرة

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
1998

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

تصميم الغلاف للفنان :

الاهداء

إلى العابرين الدروب القصيّة
والمفازات العصيّة
بالصبر
والكلمة
والموقف...

غسان

أحمر.. أبيض

الشرفة علّيةٌ، والحبال مشرعة، والمدى يضيق؛ يستدرج احمرار الأفق صدى عينيه: غداً نهار أبيض..

أشاح بوجهه: وماذا يعني أو يفيد؟!

استقرت نظراته على ورود جورية قانية؛ كانت أولى الورود التي تلقاها من امرأة، كاد يبصق؛ انتقلت عيناه إلى أصيص آخر: جوري أبيض، تلك هي الورود التي أهداها؛ أحس برغبة بالإقياء..

أعاد نظره إلى السماء، كان نصف القمر يستعد للإشعاع، أغمض عينيه: يكره القمر ودورته البيضاء، ودورة شهرية أخرى.. حمراء!

***

كان البياض يتجمع في رأس مطاطي دقيق، ويساق مع بقايا وفضلات في جدول واحد، بينما كان لمتعتنا طعم بلاستيكي. وحين تخرج من رماد المتعة، تقول: أريد ولداً..

أما آن وقته؟!

وكنت أقول: مهلاً، لا زال الوقت مبكراً، الولد يقيّد حركتنا، والأيام قادمة. سنملأ البيت والمزرعة أطفالاً وضحكات مشبعة، ولنتابع الآن الانطلاق إلى المستقبل الذي يجب أن يكون ناصعاً.

كنت أريد أن أبتعد عن أية ملامح من طفولتي. وفي أوقاتٍ أخرى أندفع متوهجاً فتقول باسمةً:

–لا.. بدأت استراحتي الشهرية، الشكر لمن أراحنا!

لم أكن أحزن، بل أشغل رغبتي بمواقع أخرى..

***

تمنيت ليلتها فحسب أن تكون العادات القديمة مستمرة، لتشهد أمي وجاراتها الدم الذي أذهلنا. لكننا كنا وحيدين، فانفرش زهوي الأحمر على الشاطىء، حيث نقضي أوقاتنا المشتركة الأولى. واندغم مع بياض الزبد..

***

لا زال للمتعة طعم بلاستيكي، رغم عدم وجود موانع وعوازل أمام قطرات الحياة. كان وجهها يحمر، وجسدها يتوهج، تحت وقع جنوني، وتحمر اللحظات دفئاً ولذة وسعادة.

ويحمر الآن الجمر في مرقدي: في المكتب، في السيارة، في هذا البيت أو في البيوت الأخرى. لازال جسدها

أبيض، ويرتجف دون أن يتوهج. ولا زال جنوني طاغياً. أحس بالتحدي، فأنهال عليها طوال الأيام البيضاء. في ما مضى كانت تشاركني وتبادلني ردود أفعال حارة. أما الآن، فصمتها، والهلع الكامن في عينيها، وحركاتها، واستسلامها، كلها أشياء تزيد من مرارة التحدي، وتزيد من خيبتي وجنوني.

حين ألاحظ طفرة جديدة من التعابير القابضة والملامح المكفهرة، أشعر أن طلائع الأحمر قد عادت، فأفقد صوابي، وأضربها وأحطم الأشياء؛ أثور على العاملين عندي، لعدم كفاية الربح الذي يجب أن يكون أكثر فأكثر. ثم أتكسر على مشارف الوقت الذي يعبر حاداً.

وحين أنظر إلى الشعرات البيض التي تسللت إلى رأسي، أحس أنها جواسيس مدسوسة في واجهتي، لتنغص عليّ وقتي، وتخرب سعادتي. فأنتزعها، كما أنتزع من تسوّل له نفسه أن يفكّر في التطفّل على سلطاتي أو مشاريعي. واستطعت بعد حين أن أبعد هذا الاستفزاز؛ فرأسي يتلون كما أود، وقبل أن يبدأ لونه بالتحور أعيده لمّاعاً، تماماً كما صارت مؤسستي صافية بلون واحد.

***

كل شيء طبيعي عندي، نطافاً وكثافة بيضاء.. وكل شيء منتظم عندها مسالك وجرياناً أحمر؛ هذا ما أكده الأطباء الذين قابلتهم وسافرت إليهم؛ قلت لهم: يمكن أن

أبدلها، أو أضيف إليها مثنىً وثلاثاً ورباعاً.

أنا أحببتها، يمكن أن يكون قد حدث، عشنا أياماً حلوة، لا أنكر. وصبرت عليها، إكراماً لأبيها الذي دلني على الطريق التي أوصلتني إلى هذا المستوى.

ابتدأتُ بأمواله، اسمه هيّن الصعب أمامي، وحلل المحرمات؛ لكن هذا كان في البداية، أما فيما بعد، فقد فتحتُ أبواباً احتار أو تردد في الاقتراب منها، واكتشفتُ مغاوز لا يصلها إلا القليلون الموهوبون مثلي.

احترمتُها، وقدّرته؛ ولكني أحب نفسي أيضاً. فلها عليّ حق، كل الحق..!

– أنتظرا! قد يحدث الحملُ في أية لحظة، لا سبب ظاهر لعدم حدوثه.

أكد الأطباء المشهورون..

– لا تيأسا. ولا تقنطا من رحمة الله.

الآن، بتُّ أقنط منها.

حاولت تصحيح ما اعوجَّ، وتعويض ما فات؛ أولمت في كل المناسبات؛ ابتنيت أكثر من مزار لا يليق موقعه ومظهرهُ بمقامه ومنزلته وقدره. تصدقتُ على "القائمين عليها"، والباحثين عنها. لكن الرحمة استعصت على النزول. انتظرت، ولكن إذا لم يكن من فائدة فلِمَ؟!

حاولتُ الوقوف على الحقيقة، فجربتُ المجرَّب؛ كانت موظفة عندي، أسكنتها في الطرف الآخر من المدينة، وأغلقت عليها السبل، بعد أن تكفلتُ بابن الشهيد، شرط السرية والغياب، وانتظرتُ النصر المؤزر. لكن الولود لم تبيّض فألي، بل أضيف جريان آخر إلى النهر الدامي:

(كان يتخبط بدمه، لم أستطع إنقاذه، كان القصف عنيفاً، وركضت بأقصى سرعة، مبتعداً عن الموقع، ناجياً بجلدي.. المهم أني نجوت.. بقيت صورته المتلجلجة المحمرة تعاندني، تقلقني.. لكني ارتحت أخيراً، أنقذتُ أسرته، تزوجت امرأته، وأعتني بابنه.. ألا يكفي هذا..؟!)..

لكن الدم لم يتركني..!

دم.. دم.. لماذا الدم يلاحقني؟! هل أنا مسؤول عن كل ما يجري في هذا العالم؟

(عارٌ على البشرية في ذروة حضارتها، أن تجري أنهارٌ بمياه محمّرة وأشلاءٍ وجثث..).

كانت تقول التعليقات العاجزة في وسائل الإعلام.. وأقول:

– وعارٌ أنها لا تحاول إيقافها بأي ثمن، أو أنها لا تستطيع.!

– بل نستطيع..!

قال الطبيب:

– وإن قبلتَ نلقِّح خارج الرحم، ونعيد كل شيء إلى موضعه..!

***

– شرف المهنة لا يسمح!

قال الطبيب بإصرار..

أي شرف وأية مهنة؟!

أنا لم أقل له أن يفعل، صحيح، وهل عليه أن يخبرني؟! ليفعل ما يجب أن يُفعل! وأيّا كان المصدر! إذا كان الأمر يجري بعيداً عن العيون والأسماع، وتأكد من لهفتي واسترخاصي أي شيء في سبيل ولد لم يعد ينقصني إلاه؛ هل كان ضرورياً أن يسألني؟! صار طبيعياً أن أرفض؛ فالشرف لا يسمح!

شرف، شرف: شرف المهنة، وشرف العلاقة، وشرف الوظيفة، وشرف العائلة، وشرف الأسرة..

وتحدثونني أنا عن الشرف.؟!

أنها طفرة في الشرف، شرف في غير محله، أو في غير أوانه..

أرسلت إليها السائق بسببٍ ومن دونه، ذهبا معاً في مشاوير بعيدة ومهمات متكررة، واستمر انتظاري الشهري..

مجزرة تنتهي ومجزرة تبدأ، تنجح هدنة في مكان، لتندلع الجراح في مكان آخر. ويعود الدم ليسقي خيبتي..

فلماذا يخيّب ظني السائق الذي طلبت منه مرات أن لا يُهندم نفسه كثيراً، كي لا يخلطوا بيننا، كما حدث حين استقبلوه بالعناق، وحيوني..!

هي فرصة لينتقم.. فَلِمَ لا يفعل؟!

هو وسيم، وشره، ويعجبني، ويفهمني! هو لا يخونني؛ أخرجته من ورطات كثيرة تكفي كل منها لتغييبه طويلاً، أشفقت على أمانته وصبيانه الذين يتزايدان حولياً، وهذا ما زاد من إعجابي واهتمامي به.

وهي لم تفعل، رغم أني أوصلت خبر ضراتها إليها عن طريق السائق الوسيم ذاته.

ولم تفعل!

الأمر ليس سهلاً، أعرف، فكرت فيه طويلاً، وبصقت في داخلي كثيراً.

وأحسُّ أن رأسي محفورٌ بأنفاق سوداء طويلة متعرجة ناتئة الحواف، لا تنتهي. ولكن ما العمل؟

إذا كان الطبيب لم يفعلها دون أن يسألني وأرفض، أليس الذي تعرفه خير من الذي لا تعرف عنه شيئاً؟!

الشرف منعهما؟! أم الظن أني أجربهما!! والخوف على رأسيهما؛ أنا الذي لا يصعب عليّ ذلك، فرؤوس

عديدة ضاعت بسببي، ورؤوس كثيرة لا تقوى على التوازن في حضوري، أو حضور سمعتي.

كل الأسوار التي واجهتني لم تصمد أمامي: سور بستان جارنا، وسور المدرسة، وأسوار تحرسها العيون. كلها تمكنتُ من اختراقها؛ ويصمد جدار بويضة لا ترى؟! حاصرتها ملايين المذنبات ساعاتٍ وأياماً، وعجزت عن الاختراق..

لم أخبر زوجتي، وطلبت من الطبيب أن لا يفعل. وهي لا تعلم بأن كل تلك الملايين بلا رؤوس!

***

كنت أتحسر وأخاف على كل تلك الملايين وهي تفر من بين يدي، وتتناثر أمامي، وأقول: حرام أن يضيع الجهد، وتتبعثر الإمكانية؛ كل هذه مشاريع أولاد، أو أولاد مع وقف التنفيذ، كما صارت تتحسر زوجتي في ما بعد، لكني كنت أتجاوز ذلك، وأقول: الأيام قادمة، ويضحك كثيراً من يضحك أخيراً! أنظر الآن إلى صورتي في المرآة، وعيون زوجتي، ووجوه مرؤوسي الذين بدؤوا يخمنون ويتوشوشون ويشمتون.

***

الضوء شحيح، يختصر المشاهد، ويشوه الأشكال. ونقاط بيضاء يزداد تناثرها في سماء مشوشة ابتلعت

قمرها.. كما موجات الأفكار المتلاحقة في رأسه المسنود على حافة كرسي هزّاز. ينقض شهاب فيخترق اللوحة، ينتفض كالمصعوق، وتقفز الأفكار حادة ضاغطة:

هل حقاً هو الحل الوحيد؟!

الحل الذي استبعدته طويلاً، وحاربه المقربون بأسهم الورثة التي ستؤول إليهم (بعد عمر طويل)..

الأمر الذي ترغبه زوجتي التي لا مؤنس لها ولا رفيق، والتي تنتظر، بفارغ الصبر، ذهابنا غداً من أجله إلى..

آه.. الأمر الذي يرعبني..!

ولد بالتبني؟!

أي مجهول هذا؟!

إذا كان الأولاد من صلب آبائهم يعقّون ويتكبرون وينسون؛ فكيف بالابن الذي لا تعرف رأس أبيه من أين؟! ولا أين ستصل شجرة نسبه؟! هل تحمل مورثاته إمكانية اختراق الأسوار، أو تسلق الجدران، أو استحمائها. أم أنه يهوى التبذير، وبعثرة كل شيء؛ خاصة إذا كان من دون تعب؟! ابن أية مجزرة أو كارثة أو هزيمة هو؟! ابن أي سفاحٍ أو اغتصاب أو حب مغدور؟! ابن أي احمرار ضاع في غفلة، أو أي انتقام؟!

إذا كان الأبناء يرمون آباءهم الحقيقيين في الوحدة والخيبة والانتظار العقيم، فما الذي سيفعله بي هذا

المجهول؟!

وما البديل؟!

جريانات الدماء لم يستطع أن يوقفها من رغب بذلك، فتغافل عن عجزه وتعهداته، وأغض الطرف عنها. وتوقفت من نفسها في بعض المجاري، بعدما جفت اللهفة، وتبدل الحس، وحل اليأس، وكادت تغمض العيون.. وتناثر الأبيض بإصرار وعناد على حدود الوجه المثلم، ولم تَعُد الملايين سوى أشلاء بيضاء تُجَرْجَرُ دون ضجيج، ولم يبق إلا أن تتأرجح الرايات البيض على الحبال المشرعة في كل اتجاه..

❐❐❐

علاقة..!

كان كل شيء يوحي أنه الأمر الذي يجب أن يتحقق؛ إذ إنه الوضع الأمثل.. وأن ما أقيم من أفراح، حتى الرقص المجنون، والغناء الماجن،. لا يداني قيمة ما تحقق. ولا يعطي المناسبة حقها، وكل ما وصلني من ردود أفعال، كان مؤيداً ومباركاً ومهنئاً. وقرأت حسداً في عيون كثيرة. وهذا ما زاد من تعلّقي.

كان وضعاً يبدو معه أنه يستحق أن يترك كل شيء من أجله، فتركتُ، أغلقت النوافذ والأبواب الأخرى.. رفضت كل الاحتمالات الممكنة، أو مجرد التفكير بها، واقتنعتُ أنها احتمالي الأخير..

***

أحسستُ بحلاوة الفوز ونشوة الوصال وطعم العسل.

فترة من الزمن مرت، تستملكني حمى من نوع مختلف، وتسيطر على مشاعري قوة تدفعني للطيران حتى لأحسَّ أني أطير فعلاً، وأحلق عالياً، ولا يمكن أن يكون لي صلة بهذا العالم الأرضي البائس.

هي ليست غريبة عني؛ أعرفها، سمعت عنها الكثير،

حتى شغلتني عن كل شيء، وغدت سيدة الأحلام ومحورها.

لم أنشغل كثيراً بتفاصيلها، صورتها في خيالي زاهية، لدرجة تبدو معها كالوردة التي لا يصح أن تفكر بوريقاتها أو فرعها أو مَيْسَمِها على نحو منفصل.

صارت مركزاً لدائرة حياتي، أغيب قليلاً لأعود إليها، أقوم بأعمال كثيرة لأرضيها. وسرعان ما أجدني مشدوداً إلى المركز، مقدماً لها ما جنيت، وتاركاً من أجلها مشاريع واحتمالات.

لكن ما حيّرني، وزاد من إثارتها وفتنتها، عدمُ تلهفها للقائي، وعدم انشغالها الكبير بي. لقد وافقتْ منذ البداية. أو أنها لم تعارضْ. وقد فسرتُ هذا حياءً وخجلاً وعذرية. وقلت: غداً حين نصبح معاً يضمنا حيّز واحد، تظهر عواطفها المكبوتة، وتعلن عن حقيقة مشاعرها.

أنا لم أشك لحظة بها، ولم أفكر أنها يمكن أن تفكر في سواي. لأني لم أجد نفسي مرة واحدة، على الرغم من تعلقي الشديد بها، أقل منها شأناً. ولم أسمح لنفسي مرة واحدة، أن أتصوّر أنّ لدى أحدٍ آخر، أياً كان، إمكانية أن يحتل مكاني.

هذا ما يقره سراً وعلانية، الكثيرون من معارفنا.. ولكني كنت حريصاً دائماً على إظهار توددي وتعلقي، كي لا تفكر أني يمكن أن أنشغل بسواها، كما يحاول أن يُفسد الحاسدون.

غير أن السؤال الذي بدأ يفرض نفسه هو: هل كان ذلك حقاً؟! وهل عشت تلك الفترة بالفعل؟! أم أن كل شيء كان هلوسة وهذياناً ليس إلاّ!

حين أستعرض مراحل حياتي معها، أصل إلى حالة من الذهول:

فأنا لا أذكر منها حركة ودية، أو مشاركة حميمة. ولا أحتفظ، حين أفتش في ذاكرتي القريبة والبعيدة،مواساة أو تعويضاً أو عجزاً، بأي مشهد لها علاقة به، يعيد إلي توازني الذي بدأ يضطرب، أو يبرر لي ما مرّ، ويدفع عني شياطين اللوم وعفاريت الندم. حتى أني صرت أشك إذ أتساءل: هل هذه حقاً هي؟! أم واحدة أخرى؟!

ولكني حين أسترق النظر إليها، وأرى تلك الصورة أمامي، أعترف بأنها تستحق التعب والإرهاق والتضحية، ويحق لها التباهي والدلال؛ فما لديها مميّز ومثير ومُشتهى.. فأندبُ حظي، ويدور الشك، ينخر عظامي، ويتركني فاقد الأمان والمتعة.

أزمنة مرت، ونحن معاً، ولا زالت عواطفها غامضة، ومشاعرها مخبوءة؛ لم تعلن صراحة عن حبّها، ولم تبدِ تشوُّقاً لإقامة الطقوس المشتركة المستمرة. وفي كل مرة، تصطدم حماستي ببرودتها، وشوقي بصمتها، وشبقي بلا مبالاتها.

حتى لأظن أحياناً، أن هذا ليس إلاّ احتلاماً ليلياً، أو مشهداً ابتدعه الخيال. وأنها ليست إلا صورةً، لا كائناً من

لحمٍ ودم.. وهذا ما جعلني أفكر بأنها غير مقتنعة بي، وغير مرتاحة معي، وأنها تفكر في أمر آخر، أو أحد آخر!

وعلى الرغم من الأوراق العديدة، والوثائق التي بحوزتي، والتي تقرّ وتؤكد، بشهود، وتواقيع، وأختام، أن العصمة في يدي، وأنني حرُّ التصرف بها، وأنها ملك يميني وحدي. وعلى الرغم من طاعتها لي، وانصياعها لأوامري؛ فإن إحساساً غريباً تسلل إليّ، جعلني أنسحب من حال الطمأنينة التي توهمتُ، وترك أوقاتي شروخاً بدأتْ تتزايد مع تزايد شكيّ ومراقبتي وتوتري.

خجلتُ من السؤال عنها، عن تاريخها، أصلها وفصلها؛ فليس من أحد يمكن أن يعرف هذا أكثر مني. وترفعتُ عن استشعار علاقاتها السابقة، هي التي لم تستقرّ لأحد، رغم المحاولات التي لم تنته.

وسمحتُ لنفسي التي صارت تتقلّى بتصوراتها وشكوكها، أن تقوم بأشياء لم أتصور أنها يمكن أن تحدث:

فتشت أوراقها ورقةً ورقة.. محافظها، جيوبها؛ لم أجد شيئاً يثير الشك. وهذا ما يدعو للارتياح. وفي الوقت ذاته، لم أجد لديها أيَّ شيء يتعلق بي. حتى رسائلي إليها، التي كنت أبثها نيران أحاسيسي، لم أجدها. صورتي التي أبدو فيها في حال سعيدة، ليست معها. أو أنها في مكان آخر.. هداياي البسيطة في مادتها، القيّمة في مغزاها – كما كنت أعتذر– لم يظهر أيٌّ منها.وهذا ما يدعو للعجب

والاستغراب: هل أحرقت كل هذا؟ هل ألقت به في بئر مهجورة؟ هل أعطته لعابر سبيل؟! أم أنها تخفيه في مكان عزيزٍ صوناً واحتراماً؟!

لم أصل إلى جواب، وليس من المعقول أن أسألها؛ في هذا الوقت على الأقل. استحكم بيَّ القلق، أخفيته رغم اعتقادي أنه يظهر على ملامحي، ازدادت طلباتي الزوجية مرات في اليوم، لم ألحظ أي نفورٍ أو استياء. صرت أقوم الليل، بينما تنام وعلى وجهها ذلك الشعور، الذي يمكن أن تفسره رضى واقتناعاً إن كنت في حال جيدة، ويمكن في حال أخرى، أن يكون قرفاً أو إفلاساً أو استسلاماً. كنت أتمنى أن تتكلم في أحلامها؛ رحت أقضي ساعات الليل الشاق في التنصتِ، وانتظار أن تقول شيئاً، أن تبوح بأي شيء، أن يصدر منها أي كلام يجعلني أفهم شيئاً عنها. لكن ذلك لم يحدث؛ كانت أنفاسها رتيبة، ونومها هادئاً؛ لا كوابيس ولا توتر ولا انقطاع..

بادرني شعور أن هناك أحداً غيري. وبدأتُ بتوجيه سياط اللوم على ثقتي العمياء بها، وتضحياتي من أجلها. وقبل ذلك وبعده، بثقتي المطلقة بنفسي، وأن ما من أحدٍ يتجرأ الاقتراب من حدودي، أو التطاول على عريني. وأنهم جميعاً ليسوا أكثر من أقزام أمام شموخي، وحشرات في جحور مملكتي.

ومن يكون هذا الذي استطاع أن يدير رأسها نحوه،

ويحتل جزءاً من مشاعرها، أو مشاعرها كلها؟! وصرت أؤكد لنفسي أنها، لابد، في حال جيدة معه، وأنها تلتقيه في غيابي، فتصل إلى حال من الإشباع يصبح عندها أي شيء أقدّمه لا معنى له، أو زائداً عن الحاجة. وقلت: لعلّ ما يؤمن ذلك، ويسهّل أموره، أني أغيب عن البيت زمناً محدداً، أخرج في ساعة معروفة، وأعود في وقت معلوم؛ حتى إذا ما رآني أحدٌ أخرج أو أعود في مواعيد مخالفة، سرعان ما يبادرني بالقول: تأخرتَ، أو بكّرتَ يا أستاذ، خيراً إن شاء الله..!

فغيرت مواعيد خروجي من البيت، وعودتي إليه، وصرت أغادر وأؤوب في أي وقت. علّني ألاحظ أمراً ما يريحني.. مهما كانت نتيجته. ويجعلني أضع يدي على الحقيقة. لكني لم ألحظ أي شيء غريب.

وما كان غريباً أكثر، أنها لم تعلّق على هذا الأمر، ولم تتعجب.

وفكرتُ: هل هي من الذكاء بحيث يمكنها أن تخفي نفورها واستياءها؟! ربما لأنها تعلم أن قلقها سيوقع بها، ولكن كيف تمكنتْ من الوصول إلى حل؟! والتكيّف مع الوضع الجديد بهذه السرعة؟! ومتى استطاعت إخباره؟! وكيف توصلتْ إلى الاتفاق معه على تأجيل اللقاءات بعض الوقت حتى تستقر الحال؟! لا هاتف لدي، ولا عمل لديها لتخرج؛ كل شيء يصلها إلى البيت، وزوارها نادرون.. فأنا

أكفيها، هذا ما أحسبه، ومالم تعترض عليه البتة.

ومع تفاقم الحال، وتزايد الإحساس بالتعاسة والعجز، فكرتُ بالقيام بأفعال أخرى مريعة. قلت: سأضربها، وأطردها. لكن قبل أن أنفذ، فكّرتُ بالأولاد: ماذا سيحل بهمّ؟ كيف أربي الكبار؟! وكيف سيعيش الصغار؟! معها؟! هي التي لم أحسّ أنها تتعلق بهم كثيراً؛ حتى أني صرت أشك أن هناك مبالغة في تقدير حال الأمومة، وأنها تعطى أحياناً أكثر مما تستحق، وهي ليست أكثر من قيمة مثالية مطلقة نظرية، والواقع شيء آخر؛ وكذلك حال الأبوّة، وحالي معهم؛ إذ لم تختلف على عددهم، ولا على أسمائهم، ولا على تربيتهم، ذكوراً أو إناثاً، أصحاء ومشوّهين، مشغولين وعاطلين..

ثم تناسيت الأولاد وقلت: إن أسرة مغلفةً بالنفاق والشك أشد خطراً من افتراق بمعروف أو من دون معروف. لكن حتى هذا الأمر عزّ علي؛ إذ كيف سأتركها تذهب دون أي جزاء أو عقوبة؟! وأينَ ستذهب؟! ليس لها أهل معروفون تعود إليهم. وهذا ما كان أمراً اعتبرت عدم أخذه بالاعتبار فضلاً مني، وإيجابية تضاف إلى إيجابياتي وتضحياتي..

لاشك أنها ستذهب إليه، وهل هذا معقول أو مقبول؟!

كيف أسمح لنفسي أن أفتح لها السبيل الذي يوصلها إلى من فضَّلته علي؟!

أليس في هذا خيانة تستحق عليها القصاص، بحجم ما

كنت أعلّق عليها من آمال، وما قدمتُ من أجلها من تنازلات، وتركتُ من أجل عينيها من فرص واحتمالات، كانت ستجعلني شخصاً مختلفاً؟! لا، هذا لا يمكن أن يحدث، ولن أحلّ قيدها، الذي يربطها بي إلاّ بعد أن أشفي غليلي منها..

***

أعددتُ كل شيء للخلاص منها إلى الأبد، بعدما تحوَّل حبي الجارف لها رغبة عارمة في تدميرها..

أرسلت الأولاد إلى بيت جدّهم، لنحتفل معاً بذكرى التحامنا الأول وحيدين تحت سقف واحد. هذه كانت حجتي التي لم تبدِ حيالها أي رضى أو استغراب. أعددت كل شيء مشحوناً بأحاسيس قاتلة، ومدفوعاً بألف رغبة بالانتقام، ومسلحاً بطريقة مبتكرة للقيام بالفعل، الذي سيعيدني كائناً حراً مستقلاً قادراً على التحرك والانطلاق، في اتجاهات أخرى..

وعدتُ إلى البيت، كان على ما تركتُه عليه، دون أية حركة أو أنفاس، فتشت عنها في كل الغرف والأركان..

كان كل شيء صامتاً بارداً شامتاً..

❐❐❐

الشاي البارد

نوم لزجٌ يعتصره، وفراش شوكيٌّ يدفعه للنهوض.

وجع متعدد الأشكال والأسباب، يتواقت، ويتناوب مع كل حركة من حركات جسده، أو أي عضوٍ فيه..

صخب الخارج لم يترك فضاء في الغرفة العتيقة قليلة الفضاءات، حتى لو لم تكن كل حاجات وأغراض رجل خمسيني وحيد منتصبةً أو معلقة أو ممدودة؛ كما هي حال سليم.

طقطق السرير طوال تحركه فيه، كما لو أنه يغالب الأصوات الداخلة عبر الجدران، والباب الوحيد، والنافذة اليتيمة المعلقة قرب السقف، الذي يضاعف بقربه وقتامته الشعور بالارتصاص؛ مما يحول، إضافة إلى وجع الرقبة المدمَّلة، دون بقاء العينين مفتحتين قبل النوم وبعده، أو آناء القلق الليلي المتكاثف.. ويحرمه من عادة قراءة خرائط السقف ومتاهاته؛ تلك العادة وريثة متعة متابعة أشكال الخشب والدخان، ومواقع انسراب الدلف، وثقوب الحشرات،

وأصداء الحركات. بما تحمله من مشاعر الخوف والحذر من تراب، أو ماء يغافل التحديق، أو حيّات وأحياء أخرى، تتطاول على الأوقات الحميمة. على الرغم من كل ذلك فقد كان فيها ما يشعر بالإلفة، لأن حياة تسري غير بعيد عن الرأس المشحون بألف حلم وأمنية وهم.. خطا متثاقلاً يحاول لملمة همةٍ ورغبةٍ. الأصوات لازالت تتزاحم في رأسه، قادمة من جهة الساحة، متنفس الحارة الوحيد. لاشك أنها الآن، كما تصورها دائماً، تشبه رئة مدخنٍ مزمن..

بحث عن كبريت لإشعال سيجارة، لم يجد التبغ "هذا الصديق اللدود الذي لا يحترق بمفرده..!".

جلس على كرسي مقلقل، تناول الكأس من على الطاولة حائلة اللون، شرب بقايا الشاي، كان أسود بارداً، أحس بانتعاش، وبحركة في الأمعاء، ورغبة بالإقياء: كانت عادة غريبة أخرى لم يبرأ منها منذ أن كان يغرقه العمل، وحين كان يرفض تجديد الشاي، يهز المستخدم رأسه، وهو يراقبه، يدلق ما بقي في الكأس دفعة واحدة في فمه، ثم يلحس شفتيه ويناوله إياها؛ كان هذا يتكرر. ولم يتعوّده ذاك الرجل، ولم يكف عن سرد ذلك على سبيل التندّر، منذ المسؤول التالي.

***

عملية ضبط الإيقاعات، ودوزنة الطبول، واستظهار

المحفوظات، لم تهدأ منذ وقت، لاشك أنه ليس قليلاً، ولم تنم طويلاً..

إنهم في طريقهم إليها، استعدوا لهذه المناسبة السنوية منذ موعدهم السابق، وها هو الموعد الجديد للاحتفال بمولودها الجديد. يعرف هذا من هرجهم وصياحهم، من تصويتهم المتأخر في الذهاب الصباحي، والمبكر في الإياب، بما لا يتناسب مع مواعيد العمل اليومي.

هو لم يعلم بالاحتفال من الدعوات التي وجهت؛ فليس له دعوة؛ دعوه قبل الآن، بنيّة غير مؤكدة السلامة، وضعوا تلك الدعوة على الباب الخشبي. لم يذهب، لأنه لم يقرأْها؛ فهو لايخرج إلاّ في العتمة، آلى على نفسه أن لا يرى أحداً، وأن لا يراه أحد..

ولكن هل يمكن أن يذهب حتى لو دعوه صادقين؟!

هل يقوى على حضور المراسم؟!

هل يستطيع تحمل احتفالها بأولاد..؟!

***

(يتضاحك بين ساعديه، يضرب الهواء بيديه الدقيقتين، يناغيه، يقترب بوجهه ليقبله بين عينيه: "ليستا خضراوين".. ارتدادٌ قابض، تصور غائم، "برودتها أوقفت حماستي، زوغان عينيها عن عيني أسدل الستار عن العرض البهيّ، لم تتأوه كما كانت تفعل أوكنت أتخيل، أيام

الحب العذري، ليست ملامحي هذه التي تبرز على وجه الطفل، ليس ولدي..".

اتركه لها، اتركهما واخرج..!)

فتح الباب بسرعة، وبلمحة بصرٍ صار في الشارع..!

***

الشوارع مقفرة كما في كل مرة يخرج فيها أو يعود، لكن الوقت مختلف؛ كان يحدث ذلك في الظلام، أما الآن فالنهار ملبد بالغيوم والصقيع. لم يخرج مساء أمس، كان الشارع مضاءً.

تنقل بين شارع وشارع، بين حي وآخر، بين صف من الحوانيت وصف مواز؛ لم يعترض مسيره أحد، ولم يُعثره عائق؛ فالبيارق مرفوعة، والأقواس المزينة واللافتات عالية، اللوحات المضيئة تتراقص؛ أسماء كثيرة جديدة، أسماء غير معروفة تماماً بالنسبة إليه، وغير بعيدة عنه؛ لوقعها صدىً يتردد في قاع الذاكرة، فتعود شزرات صور وهياكل وأقوال.. إنها أسماء لأناسٍ يعرفهم، كان يعرفهم حق المعرفة:

"غريب، هل صار أبناؤهم ما صاروا؟! كم يمر الزمن". أحس بوهنٍ وضياعٍ ويأس: "كنا معاً!".

هزّ رأسه مرات....

لو كان تزوج منها، لكان لأولادهما أمكنة تليق.. لو

كان تزوج من سواها، لكان لأولاده سجلات ومواقع وربما لوحات:

"لو كنت أعرف أن هذا سيحصل لي.. ما خرجت من قبوي..!!".

***

ألا تخجل من قبوكَ هذا؟! لماذا لا تتركه لأصحابه؟! أمن أجل الأجرة الزهيدة التي تدفعها؟! يا للؤمك يا سليم! لماذا لا تخرج إلى الحياة؛ يا لغبائك يا مناضل؟! الأراضي منبسطة، والمدينة تتوسع، والموافقات رهن الإشارة، والأيدي المليئة الممدودة لا تعد؛ اغتنمْها قبل أن تغير الريح اتجاهها..!

موجات ريح تصر آن عبورها الزينات واللافتات المثقَّبة، والرداء المهلهل، فتصر المفاصل والأسنان والأفكار:

- لماذا (لا تأخذها)؟!
- يكفيني ما نحن عليه، ويكفيها..!
- هل أنت متأكد من مشاعرها؟!
- كل ما لديها من خيري..!
- وما ليس لديك أليس بسببها؟!
- لن تفرقوا بيننا؛ غيارى حاسدون..!

– اخرج من قبوك تحظَ بها..!

– حين أخرج منه سأخرج من حياتها؛ لأني حينئذٍ لا أستحقها!

شتيمة عجوز عمياء تخلفت عن الركب الاحتفالي، قهقهة واثقة قادمة من داخل أحد البيوت في غياب أصحابها المحتفلين، آهاتٌ تتردد من زوايا ميتةٍ يختلط فيها العذاب بالنشوة:

"هل تأوهت معه؟! لا شك أنها كانت تتصورني؛ هل يصح أن تنساني؟! أنا مفجر طاقاتها، مبدع انطلاقتها وأحلامها، محفز مواهبها و.. من منهم حظي برضاها؟! من منهم اغتصبها؟!

كانوا يتنافسون عليها وينافسونني، وكنت في أوقات استراحتي القليلة أصلح ذات البين..".

– لماذا لم تصلح هندامك؟!

***

تكاد الأفكار تسرقه من نفسه، والطرقات تعثره؛ أم أن أقدامه نسيت أبجدية السير تحت أشرعة الضوء، وعلى إيقاع الحياة.

في ما مضى لم يتعود أن يفكر بحاجاته؛ كانت مقضاةً ولم يفكر برغباته؛ كان لها اتجاه واحد، منبع واحد، وغاية واحدة: رضاها! أما الآن فعليه أن يفكر في كل شيء،

ويحضر أي شيء بنفسه:

"مقطوع من شجرة، ومقطوع عن الجذر، أين المفر؟!".

ترك قريته البعيدة، انشغل عن أهله. ومن جاء بهم إلى هنا ينشغلون الآن عنه؛ مات الذين يذكرون، ونسي من ظلَّ هناك! لكن أولياءها لم ينسوه، تذكروه في الليالي القاسية تذكر المنتقم!

الأصوات تأتي من كل الجهات، يسيرون في الشوارع الهامة قبل أن يعودوا إلى الساحة الرئيسة، حيث الساعة منتصبة دون أن تدور عقاربها منذ تدشينها..!

(كانوا يدورون بالعروس في طرقات القرية كلها قبل أن تدخل بيت عريسها الذي قد لا يبعد أكثر من سماكة جدار واحد!).

إنهم مبتهجون يرقصون لزينة الحياة الدنيا؛ الأولاد وأشياء أخرى، هي، يؤكدون أنها منتشية، وهم مسرورون بالولادة دليل خصوبة وفروسية وأصالة:

"خصوبتها وفروسية من؟!

آه لو يصدقونني..!"

"آهٍ لو لم يصدقوني..!".

***

غير بعيد عن أطياف البهجة، وعلى أصداء الهتافات

والطبول، وأنغام الأناشيد والمزامير، وقف محتضناً جذع شجرة. كان يبحث بنظراته عنها.. كان يترصد طيفها، يتسقط نأمة منها، رغم اعتقاده أنها لن تقول شيئاً.

وقع المطر على أغصان الشجرة الفتيّة، وخيوطه الواصلة بين السماء والأرض، أحالا الحالة إلى شبه وهم، والمشهد إلى شفيف حلم، أحس أن نبضه تسارع؛ هل هو القلب التعب؟! أم تخيُّلها وضحكتها تغرّد على شبكة الخيوط المتلاحقة، وخفق الأعلام الملونة، والأصوات واللافتات التي تؤرجح الوقت والمتعة.

دفءٌ لذيذ بدأ ينغل في مساماته:

كانت أياماً ماتعة. حب وهيام وولع، ولا شبع!

قرقرةٌ في جوفه؛ الجوع أم آثار الشاي البارد؟! أم التساؤل القارس: لماذا؟!

تغضُّنٌ يعرج الخيوط المائية: ما الذي يلزمك البقاء هنا؟!

الآخرون ملزمون أو مستفيدون، لم أنت هنا؟!

حركات أقدامه وجسده كله زادت. هل المشاركة مع إيقاعات المحتفلين تحت المطر؟! أم الحنق الذي يتضاعف

في خلاياه؟! أم آثار البرد والبلل المتساقطين من بين وريقات شجرة الزينة؟!

(ما الذي يبقيك تحت سطوة المطر والبرد، وهيمنة القلق؟).

"إنها تستحق، لا أستطيع نكران ذلك، لا أستطع نسيانها؛ لم أعد مراهقاً ولم أزل أهيم بها؛ لم يعد لي موسمٌ ولم يبق لي سواها؛ لديها الكثيرون وليس لها سواي..".

أحس تعباً في ظهره، وتحجراً في عنقه، مدَّ يده إليه، كان بارداً رطباً.. هل هو الرقاد المتطاول؟ أم وسادة القش الخشن؟ أم سرير الخشب الذي يتآكله السوس، أم أنها آثار نير الفلاحة التي وُعد بها يوم كان لاهياً:

(هذا وعد الأولياء الذين لهم الليل والأراضي البور)! من كان مثلك كيف له أن يفكر بها؟! أمامها كل هذه القامات والانحناءات، فهل من المعقول أن تتذكرك بعد؟! حتى إن رأتك، فلن تنال منها إلا قهقهة وسخرية.

هذه قوافلهم تتشرذم، إنهم يعودون، عليك بالإسراع قبل أن يروك، فتتحول إلى فرجة ومشجب..

لا يحتاج هذا السيرك إلاّ رجلاً على هيئتك..).

***

لم يستطع الاستمرار منكباً؛ رائحة القش المتعفن، وأنفاسه التي تحرق وجهه، والغطاء الرطب العفن الذي لفه حول رأسه، دفعه كل هذا لأن ينقلب على قفاه، لم يستطع أن يبلع لعابه، أحس برغبة بالإقياء، وجعٌ في عنقه، وثقل في عينيه، وصوت تحفّر الخشب المتقاطع مع نبضات قلبه، وأصوات العائدين من المهرجان؛ كل ذلك جعله ينسى أنه مستلق على ظهره. وقذف ما كان في فمه نحو الأعلى..!

❐❐❐

الموت حق..!

للموت رهبةٌ وخوف، انشغال وتوتر، تأمل واجم وأفكار سود وصدى قاتم؛ لكن عادة سليم جعلت للموت طعماً مختلفاً..

إذا كان هذا يعمم على حالات الموت المتعددة التي تحدث، ونحضر طقوسها، أو نسمع بها، فكيف سيكون الحال اليوم، وفي هذا الظرف الاستثنائي؟

فقد ماتت أخيراً!

لاشك في هذا، فالخبر وصل إلى كل بيت، والناس بدؤوا يتقاطرون إلينا معزّين وعارضين المساعدة، وسليم في الصالون يستقبل الوافدين، وأنا هنا في هذه الغرفة أبادل القبلات بأحسن منها!

***

لم تكن علاقة سليم بأمه، كأية علاقة بين أم وولدها؛ عرفت هذا منذ الليلة الأولى لزواجنا، وما حدث وقتها: حين راحت تضرب الباب والنافذة بقوة فور أن أصبحنا وحيدين،

وفي كل مرة يخرج سليم، ليهدئها ويرجوها أن لا تسمع الجيران المتيقظين. وما إن يغلق الباب من جديد، حتى تعود إلى هياجها وصياحها. حتى صارت ليلتنا تلك سيرة مخزية وذكرى جحيمية.

على الرغم من أنها – كما أكد سليم والجيران في ما بعد– هي التي ألحت عليه أن يتزوج، وسعت بكل الحجج والتبريرات، ووساطات الأقارب، لكي يصبح رجلاً صاحب أسرة وأولاد تراهم قبل أن تموت. ولم تبدِ أي اعتراض على اختياره لي. وقد حاولتُ مراراً أن أبرر الأمر، وأضع له أسبابه الوجيهة: فهو وحيدها وكل شيء في حياتها– هكذا كانت تقول– بعد أن غاب والده دون رجعة، ولم يمضِ من مشوارهما المشترك غير سنين قليلة؛ وهي أمه التي سخّرت حياتها، وضحت بكل شيء من أجله؛ حتى طلبات الزواج العديدة، كما كانت تكرر دائماً، بمناسبة أو من دونها. لكن هذا لم يمنع من أن يجعل ما بيني وبينها، لا يختلف عما يُعرف عن علاقة اثنتين في مثل وضعينا؛ فهي أمُّه، وهو وحيدها، وأنا شماعتهما التي تنوء تحت أحمالهما. لذا فإن نفوري لم أستطع مقاومته، رغما ما سببه لي من خلاف مع سليم، وما تعرضت جراءه لإهانات..

ليس هذا مهماً الآن، فقد ماتت وانتهى الأمر، لكن المهم شيء آخر، فهل سيبقى سليم على عادته الغريبة تلك؟ أم أن هذا الظرف الخاص سيلقي بثقله عليه ويشغله

عنها؟

وعادة سليم التي قاومتها وحاولت تغييرها في البداية، جعلت الإحساس لدى سماع خبر الموت يختلف عن الإحساس المتوقّع أو المألوف، فالموت كارثة الإنسان المحدقة، أنّى كان وحيثما حلّ. ومجرد حضورها في القرية أو المنطقة أو العالم الذي أصبح صغيراً، يجعل من الناس المختلفين بتفكيرهم أو سلوكهم أو أوضاعهم، متساوين في خوفهم واستلابهم وعبادتهم وإخلاصهم وتقواهم؛ أما عند سليم فالأمر مختلف إلى درجة الغرابة والشذوذ كما فكرت طويلاً.

***

كانت أم سليم تقول:

(في ما مضى، وحين كان يموت واحدٌ من العائلة المهمة التي تملك الماء والسماء والهواء، كان ممنوعاً على جميع الناس الاغتسال، أو غسل الثياب. ويعتبر حبل الغسيل شاهداً على الجريمة التي تستحق العقاب. أما إذا كان الميت خارج تلك العائلة، فكل شيء جائز، حتى حفلاتهم وأعراسهم وولائمهم التي لا تنتهي؛ والدك لم تكن تلك الأوامر تعجبه، فيقول لي حين يسمع بوفاة تخصهم: ردّي الغسيل!

حاولت كثيراً أن أمْنَعَه أو أن نخبىء الأمر، ونغسل الغسيل داخل البيت. لكن حبل غسيلنا كان يمتلىء عن

آخره؛ هددوه، وعاقبوه، وما نفع ذلك؛ أبوك كان عنيداً. وماذا كانت النتيجة؟ انهار سقف محفارة التراب الأبيض البعيدة، حيث كان يحفر وحيداً فوق رأسه "اليابس قضاء وقدراً" ومات. هذا ما قالوه: وأقنعوا الناس به).

وهذا سليم عند سماعه خبر الموت ينتفض ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ثم ينظر إليّ نظرة خصبة، وطيف ابتسامة يوشيّ وجهه المحمرّ، ويتابع: كلنا على هذا الطريق.. يا حسرتي.. !! وأعلم أن وليمة عامرة وليلة حمراء في طريقها إلينا.

قاومت هذا الأمر كثيراً، وفكرت في أن أعرض قضيته على طبيب، أو آخذ رأي أحدٍ فيها . ولكني خجلت، وخفت، وفكرت بالعاقبة إن علم سليم بذلك.ثم ندمتُ لأني فكرت في مثل تلك الأفكار؛ فقد بدا في ما بعد، أن الأمر لابأس به على أقل تقدير، بل ربما اقتنعت أنه افضل وسيلة لمواجهة مواقف محبطة ومأساوية. ومغالبة الشعور بالعدمية والفناء والخسران، كما يحدث في حالات الموت. وأحس الآن أنه جميل و وماتع ، دون أي اعتبار آخر؛ فالموت حق، والحي أفضل من الميت!! لكن ماذا سيحدث اليوم؟ وماذا سيكون موقف سليم المنشغل الآن باستقبال الملتاعين الحزانى، وتحضير الجنازة، ومتابعة أمور الإخبار، وتحديد ساعة الدفن، والشيخ الذي سيقوم بتقديم النصائح لأمه للمرة الأخيرة، والتي لن تسمعها، كما كل الكلام الذي تردد على

مسامعها، في عمرها الذي طال كثيراً، حتى حسبتُ أنه لن ينتهي.

صحيح أن سليماً حين اكتشف وفاتها في الصباح، لم ينظر في عينيّ، ولم أر على وجهه طيف تلك الابتسامة التي أشتهيها..

لكن أقول: الميت أمه؛ فهل من المنطقي والمعقول أن يكون الحال معادلاً لكل مناسبات الموت الأخرى؟! وهل من المعقول أن يفكر الآن بمثل هذا الأمر؟! وهل لديه الوقت والرغبة في ذلك؟!.

ولكني أعرف سليماً. فما كان يقوم به، والحالة التي تسكنه تلك الليالي، والهياج الذي يستولي عليه، تجعلني أظن أن مثل هذا لا يغيب عن تفكيره. وهل سيقول لي إن فكر به ولو للحظات؟!

تُرى، هل تغافل عن الأمر ليختبرني؟! ليرى إن كنت أكره أمه، أو أحبها؟!

لا.. لا أعتقد ذلك؛ فهو متأكد من مشاعري نحوها إلى أبعد حد، وليس الأمر يحتاج إلى أي اختبار.

ربما يكون قد خجل أن يبوح به أو يعلنه، وهل كان عليّ أنا أن أسأله؟! هل ينتظر ذلك ويحسبني نسيت؟!

أنا لم أنس؛ وهل يعقل أن أنساه، وفي مثل هذه المناسبة النادرة؟!. لكنني ترددت من أجل مشاعره هو؛

مهما يكن فقد كانت أمه، على الرغم من سلوكها الغريب، وطبعها الحاد، ولسانها الأكثر حدة. هل أستعد لهذا دون أن أسأله؟!

ولكن ماذا يقول الناس، إن لاحظوا ذلك، هل هو احتفال بموتها؟! كما علّقوا في مرات عديدة، وهل أتناسى الموضوع، ونغيّر الطقس هذه المرة؟! لكني لا أستطيع أن أتناساه؛ بل إن شعوراً دافئاً يستولي على كياني، وهسيساً عذباً يطوف على مسمعي، وأطيافاً زاهية ملونة ترفرف أمام ناظري، ورغبة حارة خصبة تدغدغني، فأكاد أضحك، لولا ضرورة الولولة والنواح، وضرورة اعتصار الأعضاء الداخلية والخارجية لترسل بعض السوائل التي تبيّض الوجه. الآن أنا راغبة أكثر من أي وقت مضى؛ أحس أنها مناسبتي وحدي، ولا يمكن أن أفكر بتفويتها.

ولكني حائرة ومتوترة وضائعة وخائفة من نتائج أي تصرف..

تُرى هل أفاتحه بالأمر؟! أم أنتظر؟!

❐❐❐

الفحيح

انخطف في الطريق المتعرجة، بعدما لم يعترض أي كائن متحرك نظراته التي أدارها في الجهات كلها خاصة جهتي الطريق العام. احتضنته الظلمة المتكاثفة وألبسته رداءً آخر، يتكفل بإخفائه عن العيون المتربصةِ المسافةَ التي تفصل شعشعة ذلك البيت عن أنوار الطريق الرئيسة. لكنها لا تستطيع إبعاد خطر حيّاتِ هذا الصيف القائظ، التي يمكن أن تحضر في أي حيّز يضع قدمه فيه؛ بيد أن توتره وحَذَرَه وانشغال تفكيره بأشياء كثيرة، تجعل التقدم ممكناً، بفواصلِ ترددٍ وتساؤلٍ وتصارعِ رغبتين أحلاهما مرة.

***

– هل سيكون هناك؟! ما الذي يفعله ذلك الفظّ الثقيل؟!

– وما الذي تفعله أنت؟!

– أنا؟! حقاً! لا.. أنا قادم لأطمئن على البنت؛ اليوم

كان امتحان الرياضيات، لابد من التأكد عن قرب إن كانت الدروس التي أعطيتها إياها قد أفادتها..

– وهو يطمئن عليها كذلك؛ أليس المدير الذي يحب طلابه/ أبناءه؟!

– من مثله لا يعرف معنى البنوّة!

– أليس هذا ظلماً؟! أليس هو من طلب منك إعطاءها الدروس؟!

***

قابلني بحذر؛ قال متردداً: أعرفك تحب عمل الخير!

قلت: من يكرهه؟ هنيئاً لمن يستطيع فعله دوماً!

قال: صفاء ابنة توفيق (أبو سعيد) المستخدم، تحتاج بعض المساعدة في الرياضيات، أستاذها من قرية بعيدة ،وهي غير مرتاحة من طريقته في الشرح، وأنت لا يضرّك أن تزيد مواردك قليلاً.

– أنت تعرف رأيي في الدروس الخصوصية، لو كنت أوافق على مثل هذا، كنت في حال أخرى. ولكن من أجل أبي سعيد لابأس، لكن دونما أجر.

قال مدارياً وجهه، متجاوزاً إهانتي:

هذا ليس مهماً، من أجلي أو من أجل أبي سعيد، ولَنْ يضيع أجرك؛ عند الله على الأقل.

اختارني لثقته بي كما قال وأكد..

***

لبريق عينيها معنىً كيف لمثله أن يفهمه؟!

وطفولة وجهها كيف لا تنخدش من جلافة منظره؟!

وبراءة ملامحها وسكينة تفاصيلها ووداعة حديثها والتفاتتها وحركاتها كيف تصمد أمام جحوظ عينيه وفظاظة حضوره وجرشِ كلماته؟!

إنه الكارثة الأخرى بعد أبي سعيد/ زوجها!

ما الذي يريده منها؟!

زوجته وأولاده في أحسن حال، أملاكه لا تقدر عليها تقارير وعيون الحساد، مركزه لا ينافسه عليه أحد في هذه البلدة، ومرشح لمراكز أعلى!

ماذا يريد من زوجة مستخدم في مدرسته/ خادمٍ في منزله؟!

وما الذي أريده أنا منها؟!

من حاله كحالي يجب أن يكره حواء من أصلها..!

***

واقف على حدود الظلام ومشارف الضوء كبعوضة تنتظر غفلة الساهر. ركن الفرندة الواسعة يظهر من موقعه: صوته مسموع، ورأسه مرفوع، وكرشه مستقر. دخان

يتصاعد من فتحات وجهه، حركة دؤوبة لأولاد منشغلين.

فاجأه خروج أبي سعيد لاستكمال مهمة حراسة المدرسة ليلاً، حلف على الزائر أن يبقى؛ إذ لا غريب إلا الشيطان! الشيطان الذي لعنه محمود ألف مرة حين اضطر لمعانقة جذع الشجرة القريبة، لكي لا يلفت انتباه الحارس النبيه إلى جذعٍ دون أغصان في عقر داره.

***

من حاله كحالي يجب أن يكره حواء من أصلها..

أنا لست الصغير بين اخوتي، ولكني الوحيد القادر على تحملها. هي التي استطاعت إفراغ رأس أبي من الآمال، وحياته من لحظة هناء واحدة، وصلبه من الخير الذي أنتج عشرة أولاد، عدا من مات قبل الولادة وبعدها. وكان يقول عند كل زغرودة من القابلة: الحمد لله! وتضحك أساريره.

وحين يسألونه: ألهذه الدرجة تحب الذكور؟!

يتنهد ويقول: لا أريد جنس حواء.

وينظر إليها، يهزّ رأسه ويصمت..

حين استدار إلى القبلة، ونام، برزت على وجهه علامة الارتياح؛ لقد تمنى الموت طويلاً، وإن كان يؤمن أنها قصاص منه في الدنيا، سيوفر عليه الكثير في الآخرة. تقاذفها الأولاد وأولادهم، واستقرت عندي؛ أسكنتها إحدى

الغرف وتصاممت عن شكواها واعتراضاتها وحدة لسانها، وتغافلت عن معاركها المتواصلة مع حميدة زوجتي، والتي لا يمكن لأيّ وسيط قوي أو ضعيف، نزيه أو متعاطف، أن يوقف سعير الحرب بينهما.

أحياناً، أقول في سري: الحق مع حميدة، فأمي من طينة فريدة:

تقاتل الدجاجات إن بضن أم (قطعن)؛ إن أكلن أم امتنعن، إن رغبت إحداهن في أن تكون أماً، شنت عليها حرباً من الشتائم والدعوات، وأغطستها في برميل ماء لتبريدها، وإن قضت بذلك.

تحارب الفئران والقطط والكلاب والبعوض الذي لا يتركها تنام، ولا تدعه يستقر، ولا يمكن أن يتم أيُّ من طقوس الحياة في البيت دون أن يحسب حسابٌ لوجودها؛ حتى لقائي الغريزي مع حميدة، يجري تحت هيمنة شبحها فما إن أقوم إلى الحمام في أية ساعةٍ من الليل، محاذراً إصدار أي صوت، حتى تظهر على باب غرفتها، تهمهم وتدمدم، وأغض الطرف عن نظرات زوجتي التي تذكرني بالدليل؛ زوجتي المحترمة، والتي تصغرها بنصف قرن تقريباً، لا ترضى للحق أن يستقر إلى جانبها، فسرعان ما ترد الصاع صاعين، وتواجه الحملة بأشرس منها. وهي لا تنسى أن تُحضر لي كل حين وجبة، فيها كل ما يخطر على بال أية زوجة من أساليب وأقوال وأفعال تجعل

اللحظات أشواكاً، والأمكنة مسامير، والرؤى ضباباً أسود مقيماً. وتقوم بكل هذا، غير عابئة بتهديدي وإنذاراتي التي تعددت، وخرسي الذي يستمر أياماً، فهي صاحبة البيت، ولا فضل لـ أحدٍ عليها، حتى أنا الذي تحول البيت /بيتي، الذي بنيته بأموال المصارف، إلى ساحة عراك لا تهدأ إلا استعداداً لحرب أخرى.. ودخلتْ صفيةُ البنتُ الكبرى وأخواتها الخمسةُ الحلبةَ إلى جانب أمَّهن حيناً، وأخرى إلى جانب أمي، وقد ينقسمن ليزداد أوار النار.

حين أخرج من البيت، أسمع الجوقة تردد مقطعاً واحداً مُشَدّداً: إلى أين؟! وحين أعود تواجهني النغمة ذاتها: أين كنت؟!

ولا أجيب في الحالين، فيستتبع ذلك بملاحق من التذمّر والشكوى والحنق والرقص غير المنظّم، والذي لا ينتهي إلا بعد إجهاد وتعب، وعجز عن الفوز بحملي على الكلام.

مسلسل اعتدت حلقاته التي لا تنتهي، ولم يرحني صمتي أو هروبي إلى الكتب والقراءات، حتى أني كرهت جنس النساء، وصوت النساء، وحديث النساء حتى كلام شهرزاد المباح.

أمي، والناس الحريصون على مستقبلي، يلحون علي أن أتزوج مرة أخرى ليحيى ذِكْري، وليسمع صوت ذكوري

في هذا البيت الذي لا يدور في فضائه غير الفحيح..

إنني أشتاق صوتاً ذكورياً، ولكنْ: ألا يعني هذا إحضار واحدة أخرى من جنسهن؟! إن هذا لوحدهِ كفيل بإبعاد أية فكرة من قبيل ذلك، أو أية خطوة قد تؤدي إلى التقرب من إحداهن؛ حتى زملائي وزميلاتي في المدرسة يستغربون حالي ويتهمونني بالتعصب الذي لا يشرفني. ولكن الحساسية تجاه أية امرأة، تجعل أمر الدفاع عن نفسي متعذراً. وحين طلب مني المدير ذلك الطلب (الإنساني)، استعذت بالله، وحاولت التهرب والاعتذار، لأنني لا أطيق الجلوس إلى أنثى، وإن كانت في مثل عمر ابنتي صفية، وهذا ليس حباً في متأكدة أمي التي فرحت لهذه السيرة.

وليس خوفاً من زوجتي التي طار صوابها؛ لقد ضحكتُ كثيراً من أفكار النساء، وعقول النساء، وأوهامهن، وأضحك الآن من نفسي وأفكاري وحالي؛ من يراني هنا الآن ماذا سيقول؟! هل سيجد لي أي عذر؟! سيظنون أني ألاحق الفتاة، سيحكون وينتقدون، لكنهم يظلمونني إن فعلوا ذلك، أنا لم آت من أجلها، يمكن أن أحلف لهم صادقاً. ولكن هل يمكنني أن أفسر لهم وجودي؟! هل يمكن أن أقول أنني آتٍ من أجل

يا الله.. هل هذا معقول؟! وهل يُصدق؟! وهل أصدق نفسي؟! ما الذي يستحق التضحية والمغامرة والعناء؟!

نظراتها؟!

هل أنت مراهق؟! وهل نسيت حالها؟! ثم إنها تجلس إليه الآن، ألا تنظر إليه النظرة ذاتها؟! وإلى سواه أيضاً؟! وماذا تسمي امرأة ترضى أن تظل مع رجل آخر؟! لماذا لا تطرده؟! إذا كان أبو سعيد خجل أن يفعل ذلك، أو ضعف أو تردد، كيف تقبل هي؟!

ستقول: هي لا تستطيع أن تفعل مثل هذا، الحق على أبي سعيد، وليسا وحيدين، هناك أولاد؛ وكيف يقبل على شيبته أن يظل معها؟!

وكيف تقبل أنت بسمعتك واتزانك وإخلاصك أن تذهب إليها؟! أنا لا أريد منها شيئاً، لا أريد، لا أريد..

إذن ماذا تفعل هنا؟ وماذا تسمي وقوفك في الظل كلص عتيق؟!

– أنا لا أفعل شيئاً، لا أريد شيئاً، أنا ذاهب.. ذاهب..! لكن إلى أين أذهب؟! إلى جحيم الأسئلة وجنون الغيرة وشوك الاستفزاز..

ألف مرة فكرت بطريقة للخروج من هذه الدوامة التي وجدت نفسي فيها منذ السنة الأولى لزواجنا، أحسست حينئذٍ أني بدأت أعضُّ أصابعي التي أمسكت – وهي تحاول التعلق بجذع آمن– شيئاً رخواً نتناً، وإلى هذا اليوم، أحس أن هذه الرائحة تلاحقني من كل جهة وأي صوب..

وفي كل مرة يراودني هذا التفكير، أنظر حولي، لأرى

أي جحرٍ أندس فيه. وأفكر: ماذا سيحدث إن تركت كل شيء ومشيت، ماذا سيقول الناس؟!

وكيف أترك كومة اللحوم المشتهاة؟! والتي لا أحتاج حدة نظر لألاحظ عدد الفوهات المصوبة، والأصابع الجاهزة للإطلاق، فأغرق في الطمي أكثر بصراخ مولود جديد، لا تصطدم أصابع القابلة المتلهفة للتبشير، بأي نتوءٍ صغير يشرع ضحكتها، وأجد شوك الدائرة يتزايد، وضرورة تحضير دفاعات أخرى وتحصينات جديدة تتضاعف، وأفكر في كلام أمي حين تكون غاضبة على اخوتي وعليّ: لا خير في الصبيان.. لو كانت لي بنت واحدة لسترت آخرتي.

وكنت أقول، إذ أتذكر اخوتي وقرار تراجعهم عن الاستعداد لتمويل البعثة في اللحظات الأخيرة قبل انطلاق الطائرة – معها حق؛ الصبي أناني لا يشبع. لكني، بعد تناثر هذه الموجة وحين أفكر في أقوال أبي، وحين أتذكر أن أمي وحميدة وصفية وأخواتها إناث، أقول: ولا خير في البنت أيضاً.. تُرى أية مرارة أوصلتني إلى هذه القناعة؟! وأي صبي حالم طموح كنت؟! وأية قدرة على الحب والعطاء والثقة والانطلاق تلاشت؟! حتى صرت أشك أني أحب نفسي؛ وهل هذه النفس التي ترضى أن تقف مثل هذا الموقف، وفي هذا المكان، ومن أجل تلك الغاية، يمكن أن تُحب؟!

***

الوقت يوالي انضغاطه فوق رأسه مضاعفاً إحساسه بالضآلة، والظلام يتكاثف في الجهات الأخرى، كأنما يسد عليه المنافذ، ويبرر استسلامَه، لعجزهِ عن التصرف، كما لو كان عالقاً في فخ قد تؤدي أية حركة إلى انغراز الأسنان في جسده أكثر، فجعل يشاغل الحال، محدقاً صوبها، يراقب أدنى حركة منها، ويترصد أي ملح يمكن أن يستنتجه.. ويفكر ويتساءل: ما الذي يجعلك منجذباً إليها؟! ما كنت تبحث عنه وتنتظره من حميدة أماناً من كمائن الحياة وسهام الترصد؟! أليست هذه الصفات هي ما تجعلها تحجم عن طرد هذا الضيف الثقيل، أو التصرف حياله أي سلوك ينم عن نفور أو امتعاض، بعد خروج أبي سعيد إلى مهمته في حراسة المدرسة فترة الامتحان؟!

ألا تظن أنها تحتاج بعض القساوة والخشونة لطرده؟! تلك التي لا تَعْدمها حميدة، لو تصرفت حميدة مع أي مخلوق مثل هذا التصرف المهذب؛ مع أي مخلوق آخر؛ رئيسك، أو صديقك، أو مدرس ابنتك، هل كنت ترضى عنها؟! ألا تقيم الدنيا ولا تقعدها فوق رأسها!!

وأنت؛ ألا تحتاج قدراً كبيراً من الشراسة لصد الرياح التي تقتلعك؟! لو كنت قاسياً مع أمك، وسيداً على زوجتك، وخشناً مع بناتك هل كنت في مثل هذي الحال؟! وهل كنت تعيش في دوامة الصليل والفحيح واللدغ..؟!

آه.. ما الذي يصوّت قربك الآن؟! هل هذا فحيح؟! هل يلاحقك الفحيح إلى هنا؟! هل الحق على الأفاعي أم عليك؟! هل هذا الوقت المكان لها أم لك؟! وإذا ما لدغتك إحداها، ماذا ستفعل؟! ماذا سيحل بك؟! ماذا سيقول عنك الناس؟! هل سيترحم عليك أحد؟! هل سينقذك سوى المدير إن سمع صراخك أو اصطدم بجسدك بعد انتهاء فصول زيارته!

ومتى ستنتهي هذه الفصول الدهرية؟!

وماذا ستفعل أثناء خروجه، هل ستحتضن جذعاً آخر؟! أم تتكور جوار هذا الحائط الحجري القديم الذي يمكن أن تستوطنه قبيلة من الحيات، أو بين هذه الشجيرات الكثيفة التي يتفصّد منها الفحيح..!

وماذا ستفعل إذا ما نجوت؟! هل يمكن أن يُزار أحد بعد هذا الوقت؟! وهل ستستقبلك بالبراءة ذاتها والوداعة عينها؟! أم أنها ستغير من هذه الصفات وتستعير صفاتٍ أخرى من زوجتك أو أمك أو بناتك؟!

وعندها.. ألن يكن معها الحق؟! هل تلومها؟! وماذا ستفعل بخيبتك؟!

الصليل يتصاعد، والفحيح يتضاعف قرب قدميه، في رأسه، في كل خلايا جسده. تحول المكان والوقت إلى أزيز، وطنين، وأصوات حشرات من كل الأنواع التي تمتاز كلها بسمية قاتلة..

سيعود أدراجه، لن يبقى أكثر، لن يعرض نفسه لموت رخيص، ألا يكفي أن الحياة نفسها رخيصة؟!

أدار ظهره، مشى بتثاقل، نظر نظرة أخيرة، كان الجلف يتحرك، البراءة والوداعة واللطف تتضاعف أثناء توديعه.

توقف محمود، ماذا سيفعل بعد أن حان ما كان ينتظره؟!

هل سيذهب محله؟! هل هذا يليق؟! وفي مثل هذا الوقت.؟!

لا.. انتهى الأمر، ما فات فات، لن يحتضن جذعاً، ولن يندس في جُحْرٍ شجري، سيذهب خارج هذا الجحيم..

عليه أن يسرع، ماذا لو لمحه، أو شاهده، سيخسر أكثر فأكثر.. سيركض.. عليه الآن أن يركض كي يسبق ذاك الذي خبر الطريق..

ماذا أوقعه؟! حجرٌ أم غصنٌ نافر أم أفعى؟!

ما الذي يسري في دمه؛ رعبٌ أم ندمٌ أم سم زعاف؟!

ما الذي يضج في خلاياه كلها؟!

❐❐❐

مطرٌ آخر الوقت

أفاقت من نومها مذعورةً.. امتدت يدها بلهفة إلى صدرها، لتتأكد من وجودهما معاً؛ لم تدر كم نزّ من فحيح الليل، وعلى أية آهة يتقدم الصباح، لكنها تعلم أن الجو شتوي حقيقي، وكل ما حولها يوحي بالكآبة، ويشي بالوحشة، وينم عن القلق، ويشد الحبال ليضيق الفضاء المربدُّ، حتى ليكاد السقف يطبق على النفس.

منذ أن عادت صديقتها وفاء بثديٍ واحد، وهي تعيش أوقاتاً كابوسيّة في اليقظة والنوم.

لم تكن وفاء الضحية الأولى التي يداهمها ذلك المرض اللئيم في المحيط القريب، لكن الأمر مع وفاء مختلف..

***

هما آخر كنزٍ يمكن أن يلفت الانتباه؛ فقد جفت نضارة وجهها، وبدأت ظلال شاحبة تستوطن ثناياه؛ وعيناها خف

بريقهما وحياؤهما، وصار بإمكانهما ملاحظة كيف تستقر النظرات الشهوية والفضولية أسفل رقبتها، وتنتقل من جانبٍ إلى جانب.

هذا ليس جديداً، تماماً، على من كانت في مثل سنّها، لكنها في ما مضى، كانت تنزعج بدرجة ما حين تلمح أو تتوقع حصوله، وتفكر أن على الناظرين أن يتفحصوا الرأس، وهم إذا كانوا لم يريدوا أو يستطيعوا إلى الآن النفاذ إليه، فإنهم يخسرون.. لكنها بدأت تحسُّ منذ زمن ليس بالقصير، أنها كانت هي التي تخسر، وهذا ما جعلها تنقل مركز اهتمامها إليهما: تعتني بهما، وتنشغل بمرتسميهما، وتنتقي ما يناسب ذلك من حمّالات وثياب.

فإذا ما اختل توازنهما، فإن تلك النظرات ستعبرها إلى عشرات غيرها عرفن الأهمية والمكانة للأعضاء الجاذبة، وتفننَّ في اصطياد التحديق والمحدقين، كما فعلت وفاء في زمن مضى..!

هي لا تشك في أن المقارنة الآن بينها وبين وفاء غير مناسبة؛ فحالُ وفاء أكثر مأساوية بما لا يقاس، إذ ستترك وراءها طفلين ورجلاً لا زال في عمر الشباب. أما هي فليس لديها ما تذكر به أو يؤسف عليه سوى أنها (لم ترَ من الدنيا شيئاً..) كما تولول أمها بلهجة مشوبة بالغضب، وهذا ما يمكن أن يبرر تلك المقارنة؛ فقد عاشت وفاء حياتها، أنوثتها، أمومتها، بأية درجة وأية مساحة زمنية، في

حين يلح السؤال:

هل سترى في هذا العمر شيئاً بعد؟! وهل ستنفعها انتفاخاتها الطبيعية حتى لو لم يصبها ذلك الخبيث بانتفاخاته القاتلة؟! ولكن، هل هناك بديل عن الانتظار الذي يبرر الخوف مما هو أعظم؟! ويسوّغ الوسواس منه، والانصياع للنصائح التي تدعو في كل ما تسمع وتقرأ للفحص الدوري للكشف المبكّر عنه..

***

"كان الفحص طبيعياً، ملامسةٌ وتحسسٌ بحثاً عن درنات خبيثة، إلى أن غدت حركات أصابعه مختلفة، وكذلك ملامحه وأنفاسه، فضربت يده، وقمت عن الطاولة، أغلقت ثيابي وشتمته وخرجت".

وهي الآن لا تشك في الحادثة التي تكررت أكثر من مرة على لسان العديدات، رغم أنه معروف في اختصاصه، لكنها تشكك في الخاتمة؛ فقد لاحظتْ شيئاً ما في ملامح محدثتها التي غزاها الاحمرار، وتهدّج صوتها ورفت أجفانها متسارعة.

وهذا الأمر ليس جديداً، وليس مهماً كثيراً، بل الأهم أنها استبعدته أيضاً من قائمة الذين يمكن مراجعتهم بعد أن صرفت النظر عن طبيب آخر كان قد قال لصديقة أخرى: "أنتِ تعانين من كبتٍ يا آنسة، وسواسك ناجم عن هذا، يمكنك أن تعيشي

حياتك،.. الزمن لا ينتظر، ولجسمك عليك حق.." ورافق ذلك ملامح معبّرة وحركات لها معنى..

وكانت قد أسقطت من حسابها عدنان الذي عاد منذ فترة ليس بعيدة، من رحلة علمية تطاولت، وكانت سبب شقائها، إذ تركها معلَّقة بين الأمل واليأس، والوعد والتجاهل، إلى أن غرقت في طمي الندم، وهوة الخيبة، وضاعت في سراب السنين.

وليس معقولاً أن تذهب إليه الآن بعد كل ذلك، وتمكّنه مما رفضتْ أن تهبه إياه يوماً، رغم إلحاحه وزعله من ممانعتها، وزعلها على زعله، وكان حساساً. صحيح أن الحالة الآن مختلفة، والغاية مغايرة، لكن الذاكرة والواقع والعيون والألسن والكرامة لا تَسمح؛ والخبيث أهون..!

***

تتحرك في السرير الذي يئزّ أزاتٍ جوفاء تضيع في صحراء ملفعة بضباب أسود يهيمن حولها، ويضيّع تساؤلات وأجوبة:

"لو وافقْتُهُ يومئذٍ، ماذا كان يمكن أن يحصل؟! وهل كان ذلك سيغيّر من واقع ما جرى شيئاً؟! وماذا كنت سأخسر؟! وهل أعيش الآن في بحبوحة ربح!!".

تنزّ آهة عجفاء، وتغصّ مغمضةً عينيها:

"كنت ربحت تجربة على أقل تقدير"!!

تجربةٌ تبدو الآن عزيزة وملحة ومحرقة وعصية.. كما تؤكد كل طقوس حياتها.. تضجّ عيناها المفتوحتان بمشهد السواد المطبق:

"إذن.. لماذا ألوم صديقتي إن تصرفت عكس ما صرحت به؟! أو صديقاتي اللواتي يراجعن الطبيب ذاته، دون أن يشكون أو يقلن شيئاً..؟!

وماذا لو حدث معي ذلك؟!".

تتوه نظراتها في العتمة التي لا زالت تحط في كل مكان.

لماذا لا تذهب إلى طبيبة وتنتهي المشكلة؟! سؤال هيِّن يطوف بين الحين والآخر، والجواب ليس هيّناً، إذ إنها لا تثق كثيراً ببنات جنسها، ولا تستبعد أن تكتشف الطبيبة فيها المرض عينه، حتى لو لم يكن موجوداً، وتعمل على استئصال أحدهما أو كليهما. وإذا لم يكن ذلك، فربما اكتشفت أمراضاً أخرى في الجسم أو النفس، وهي لا تزال تذكر كلام عدنان الذي كانت تلتذ بحديثه وتسعد بتحليلاته:

– المرأة أشد عداء للمرأة من الرجل، وإذا لم تصدقي، ما عليك إلا أن تراقبي عيون النساء وملامحهن عند مرور فتاة في أي مكان، وتقارني ذلك بعيون الرجال.

هي لم تكن تصدق، أو لم يكن يشغلها، فأمانها معه كان يغنيها عن كل شيء، وربما يعميها..!

لكن تجارب ووقائع كثيرة استرعت انتباهها، ولم تكن في حاجة للابتعاد كثيراً في البحث، فزوجة أخيها التي عاشت في البيت ذاته فترة من الزمن ضحكت كثيراً، وصوّتت أكثر في غرفتها الزوجية، كما بالغت في أعراض الوحام، وتمايل بطنها المنتفخ، وتحاول إلى الآن إبعادها عن أولاد أخيها، رغم انتقال سكناهم، وزياراتهم القليلة إليهم.. وهي لا ترى الآن في لوم أخواتها لها وتقريع أمها واتهامهن إياها بالغباء إلا انتقاماً منها لإحساسها بالتفوق والفرادة، وشماتة مبطّنة في ما آلت إليه قراءاتها وأفكارها، بينما يعشن حياتهن متزوجاتٍ مخلّفات (مستورات)..!!

أما وفاء، فإنها تكفي، وحدها، للبرهان على مدى ما يمكن أن يصل إليه التنافس بين المرأة والمرأة؛ فقد كانت صديقتها الأليفة، عاشا معاً زمناً مهماً، وأسرتْ لها باهتمام توفيق بها، هذا الذي لاحظته وفاء، وكانوا في دائرة واحدة، لكن وفاء استغلّت ترددها محاولة تحرير نفسها من أوهام علاقتها بعدنان، والتخلص من أدران جحوده، وجهدت إلى أن نجحت في استمالة توفيق وإغرائه بغنجها ودلالها وفتنتها..

أحست بموجة ألم مباغت "هل الآن وقت الشماتة؟! وفاء هذه تعيش الآن لحظات عصيبة وزمناً مسموماً وحياة لا تحسد على ما تبقّى منها.". ولن تشمت بها، ستحاول ذلك، لكنها لا تملك كبح جماح فكرة راودتها وعذبتها كثيراً كانت قد أفلتتها

وفاء، وهي تهدهد آخر مولود بين يديها:

– عليكِ أن تنتظري ترمُّلَ أحدهم كي تحظي بنصيبك..!

ولم تنسَ في أعقاب ضحكة مجلجلة أن تبعد الشرَّ عن شبابها، واضعة يدها على صدرها..

تململٌ شوكيٌّ وموجات انصعاق تجتاح الجسد كله، وزفرات تصوّت في الحلق الجاف..

مع ذلك ستحاول جاهدةً عدم التفكير بنظرات توفيق آن خروجها من زيارة وفاء الأخيرة، والمكان الذي استقرتا فيه..

امتدت يدها إلى صدرها من جديد..

"هل نظر إليهما حقاً؟! أم أنه الوهم؟! هل يصح أن يفعل ذلك، أو أكثر، ولم يمض سوى أيام قليلة على حال وفاء الجديدة، هو لم يحبها كما حاول إفهامي أكثر من مرة، وحاول التكفير عن تهوّره وخسارته، لكني لم أعطه بالاً، ولست آسفة، فهل من يفعل مثل هذا الآن يستحق أن يفكّر به؟!".

لكنها تحتاج أن تفكر في أية فرصة! هذا ما تضج به أبواب كثيرة لازالت مغلقة تتشهّى الطرق؛ فهي إنسان لا زالت، وأنثى..

"هل أنا في حال يمكن أن أرفض فيها احتمالاً كهذا؟! إذن سيصح ما تقوله أمي وأخواتي، سأكون قصيرة النظر

حقاً؛ بل عمياء كلية.".

توفيق كان قصير النظر، وصار بعيده، ليس هو المهم، بل الأهم أنه لا زال فيها شيء قادر على لفت الانتباه.. وقادر على الفعل، فهل هذا ما جعل دبيباً حلواً يوقظ أشياء كثيرة من سباتها المزمن؟!

تحركت راحة كفّها تتحسسهما؛ لاح طيف مجنح جميل، تجاوزت أحدهما بحلمته المنتصبة، خفقُ أجنحة عذب، علقت في الخندق بينهما، انتفضت، سقط الطيف: "يا إلهي.. سيزداد اتساع هذا الخندق، سيصبح مثل وفاء.. وفاء.. وفاء..".

هدأت، ابتلعت ريقاً ناشفاً:

"– آه.. مسكينة وفاء؛ هل يمكن أن أخونها؟! هل يصح أن أطعنها، وهي على فراش الموت؟! أن أطلق عليها بيدي طلقة الرحمة؟!".

انقباضات وارتعاشات، تقلبات وتحركات، فتح وإغماض:

"ولكن.. ألم تخني وفاء؟! هل فكرت بي وبمشاعري؟! هل حسبت أيَّ حساب لصحبتنا وصداقتنا؟!

زفرة حارقة مكتومة تداخلت مع صفير الهواء في الخارج، وتحركت يدها دون شعور تصعّد فوق الثاني:

– ألم تطعنّي في الصميم، وكنت جريحة القلب منكسرة الخاطر؟!

هل هذا انتقام؟!

وهل يمكن أن يسحب عليها أي سلاح وهي في هذه الحالة؟!

تشنُّجٌ وتوتر..

– لم أسلم من وفاء في قلب هذه الحالة! لاحظتُ انزعاجها من زيارتي. وشيئاً ما في عينيها اللتين استقرتا على الصدر، وحاولت إبعادي عن كل ما يقرب بيني وبين الحياة (المليئة بالغدر والخيانة واستغلال الظروف والشماتة).

مع ذلك هذا ليس من أخلاقك، ولا تستطيعين تبريره حتى لنفسك، ولا تحمّل تبعاته..!".

توقفت يدها بعد أن أحست بملمس القش تحت راحة كفّها..

الصباح ما يزال ينسل خيوطه البيضاء بصعوبة من رداء الليل العنيد المدعم بغيوم عاقرة مقيمة منذ أيام، وانكماش الأرض تحت سلطان برودة محكمة تضاعفها رياح توالي عصفها على الأشجار، فترقص رقصاً غير منتظم، بدأ يظهر عبر أطراف الستائر المقصرّة، التي يزيد

من عجزها الهواء الذي يعبر الشقوق مصحوباً بأنين مكبوت. يذكرها بما كانت تطلقه زوجة أخيها، وبتأثير لا يختلف كثيراً، كان ذاك مستفزاً، وهذا يزيد في توترها وحيدة مأخوذة، ولا يخفف من إحساسها هذا وجود أبويها في غرفة أخرى، هذا الذي كادت تنساه، ولن تذهب إليهما.. لا يمكنها أن تتنازل حتى لهما، لو كان بإمكانها مثل هذا لما كانت هنا الآن؟؟! تتغلغل البرودة أكثر في المسام المُصْلاة؛ برودة أقسى من قدرة أية أغطية على إنعاش الجسد الذي يتوق دفء مشاركة تلطّف تقشّر الوقت، وحنان لمسة تذيب برد التلهّف، وتسيل العذوبة في مسارب عطشى..

– هل تأخر الأمر كثيراً وفات الأوان؟! أم إن في الآتي احتمالاً، وفي الأجواء السديمية مطراً ورعداً يطلقان الينابيع من صخورها العنيدة.. تحركت من جديد لتضم ساقيها، ولتلم أطراف الغطاء باليد الأخرى. أزيزٌ معدني منفّر، هل هذا صرير الجسد أم تمرُّد السرير الذي ملّه؟! "لو كان تحركاً مشتركاً هل كان لهذا الصوت المعنى ذاته؟! أم سيطوف حينها لحن مختلف؟! وهل سيكون هناك وقتٌ للتفكير بهذا الصوت أو سماعه، أم سيضيع في ثنايا أصوات أخرى أكثر عذوبة ومتعة.. آه.. هل يمكن أن يحدث هذا بعدُ؟!".

لا زالت يدها في صدرها، تحركت، راحة كفها تسيل

بليونة، تزداد حرارتها، أحست بنعومة الأصابع ولذة شغبهما، قطرات خفيفة تنقر النوافذ. ذبلت عيناها، تراخت عضلاتها المتصلبة، ونغل في الجسد دبيب مراوغ؛ الأنفاس تتلاحق، والأصابع تزداد نشاطاً وحيوية، والمسام تتفتح.. ألسنة نارية تجتاح النوافذ..

(إنه يبحث عنه، يطارده خوفها) عبرت كلمات صديقتها، وطاف إحساس لم تحس بمثله يوماً، متعة أم لذة؟! رضىً أم أمان؟!

هل نجح في الكشف المبكّر عنه، أم كان كشفاً متأخراً جداً عن شيء آخر.. لكنه كان..

(ضربتُ يده وشتمته..).

هدير عميق.. ستشتمه.. لاشك ستشتمه..

هدير يتصاعد.. إنها تشتمه، توجه إليه أقذع الألفاظ..

هل تحركت شفتاها بهذا؟! أم انفرجتا تحت وقع قطرات يزداد انهمارها.

وهو مستمر في البحث، لا يأبه، ستضرب يده، يده اللطيفة، الماهرة، يده التي تقسو.. آه.. ستضربها.. وماذا لو ضربتْها؟!

يده التي تقسو أكثر، فأكثر..

النافذة تصطبغ مرة إثر مرة بلون الحريقِ، إحساس بما

يشبه الألم أو اللذة، الموافقة والرفض.. لا.. يجب أن تضربها، أن تسحب نفسها منه، هي تضربها الآن، تضربها بعنف، الأبواب والنوافذ تهتز، لكنها يدٌ ماردة، يد جبارة تعتصره حتى تكاد تسحقه.. تخاف الآن إن تصرفت بشكل سيء أن ينتزعه، أو أن يبقى في يده إن سحبت جسدها وفرت..

لا.. هذا غير ممكن، ستصبح مثل وفاء، ولن يعود أحد حتى زوج وفاء/ أرملها لمعاينة صدرها.

وهل ستعيش بواحد فقط، فقط؟!

بريق يشعل كل شيء..

"لا.. لا.. هذا مستحيل.. عليّ أن أتدارك الأمر.. أن أحافظ عليهما، أن أراجع الطبيب، الطبيب المعروف ذاته، الطبيب الذي راجعته صديقتي، صديقاتي.. للكشف المبكر.. الكشف المتأخر.. عن.. عن.."

يهتز البيت والسرير والجسد.

– تَمَّتْ –

❐❐❐

النقّالة

لسان معدني يتحرك مع ارتجاج الباب، ولسان لحمي عاجز عن الحركة في فم مُقَشَّش. الحفر والنتوءات تدغدغ السيارة المتحفزة للانفعال بهزّات متواصلة غير منتظمة، تناسب حال السائق المنتشي بأغنيات تتعالى من مسجلة أمامه، والذي يشرع صوت سيارته البومي عند كل منعطف، أو آلية، أو كائنات، فيسارع بعضهم للوقوف، وربما يذكرون الله، ويدعون بالشفاء، ويترحمون؛ رغم أن الأمر لا يستحق! هل كان السائق على هذه الحال حين حصل معه ما حصل؟! إذن لا غرابة في ذلك؛ فلو ينقصف نصف السيارة لا يمكن أن يحس به؛ ضحك سعد كثيراً وهو يروي الحادثة تلك مرات، لكنه الآن لا يستطيع الضحك، وشر البلية ما يضحك حقاً..!

***

اللسان يتحرك داخل حلقته المعدنية بتواتر مرعب، عينا سعد معلقتان به، عليه أن ينبه السائق، لكن ما بينهما فاصل محكم، ووضعية استلقائه لا تساعده. يحاول أن يصيح، لازال لسانه منعقداً؛ لسانه الذي صانه كثيراً ولم يفده ذلك في شيء.

النقالة تهتز، يترجرج جسده فوقها، تحاول يداه التمسك

بالحواف؛ الأمر لا يستحق كل ذلك. لو كان يستطيع الجلوس لجلس جوار السائق، أو لذهب في أية سيارة عامة؛ لو كان أخبر أحداً من أصدقائه لكان إلى جواره الآن. لكنه خجل، والأمر لا يستحق، كما أكد له الطبيب.

"إذا كان لا يستحق حقاً، لماذا العملية؟!".

تنقبض ملامح الوجه، يشتد تمسكه بالحواف:

(عملية؟! وتذهب وحدك إلى المشفى؟! إن اسم العملية لوحده كفيل ببث الرعب في نفسك؛ عملية: تخدير، وغيابٌ عن الوعي، وشق، ورتق، وإنعاش! وماذا لو لم تفق؟! ماذا إن تحسست من التخدير، أو نسي شيء من بضاعة الطب في داخلك؟!).

"لا.. لا.. مستحيل! هل هذا معقول! أنوّم ولا أفيق وحيداً؟! هذا خطأ، خطأ قاتل ارتكبته بحق نفسي".

يهدأ قليلاً:

"لماذا لا يكون التخدير موضعياً؟! الحالة خارجية، والمشفى حديث ومنظم؛ فلا خوف من شيء؛ مع ذلك، لو كان معي مرافق. لكان أمسك لي هذه النقالة الشيطانية على الأقل!".

تراوده ابتسامة شحيحة: "اقترحت على السائق أن يربطها. قهقه عالياً:

– ونربطك أيضاً..!

ثم ضرب كفاً بكف، بينما كنت أتمدد فوقها وصاح:

– ليس هكذا؛ رأسك إلى الأمام!

– لا.. هكذا أفضل؛ في هذه الوضعية أكون قريباً من الباب، يمكنني أن أراقبه جيداً.

– لو حصل معك ما حصل لحمدان، ستأتي على رأسك:

(وصلت إلى جناح الإسعاف مطلقاً الصوت المرعب، تراكض المناوبون والمرافقون والمرضى القادرون أو أسرعوا إلى النوافذ، أسرعت إلى الباب الخلفي، قلت لهم: استلموا! لم أنتبه إلى أن الباب مفتوح، نظرت إلى داخل السيارة؛ لا نقالة ولا من يحزنون!! انعقد لساني واضطربت، ولم أدر ما أفعل، ثم انطلقت بالسيارة بأقصى سرعة، راجعاً على الطريق ذاتها).

يضحك ضحكاً كأنما خارج من أعماقه: (على بعد كيلومترات كان حمدان يعرج حاملاً النقالة تحت إبطه!).

كان يتحدث بانشراح غريب دون أن يعطي بالاً لقلقي:

– ماذا لو انقلبت النقالة؟! أو كانت سيارة وراءنا مباشرة.. أو.. أو.. ليتني وافقته؛ السقوط على القدمين أهون منه على الرأس! لكن.. لا.. هكذا أفضل؛ يمكن أن أستقبل الأرض بيدي، وأحمي رأسي.

قال مداعباً: (لماذا تمسك بالنقالة بهذا الشكل؟! منظرك كمن يتعلم السباحة على فراش أو خشب).

حقاً، يشبه ذلك، حدث معي مثل هذا".

ضحك سعد، ثم ناست الضحكة:

"لقد انقلب الفراش، ولولا صديقي الذي يجيد السباحة، اختنقت من الماء المالح، لو سبحت هذه النقالة في الهواء، أو انقلبت قبل أن تنقضّ على الأرض، من الذي ينقذني؟!".

***

القضية لا تستحق، لست أول من يصاب بهذا، أو تجرى له هذه العملية. كثيرون سبقوه، وكثيرون ينتظرون دورهم كما يقول توفيق الذي صارت مؤخرته على كل شفة ولسان، كما كان يصرح دائماً، ويؤكد: لقد دخلت مؤخرتي التاريخ! ويستطرد: تاريخ هذه المؤسسة على الأقل. ونمَّ عن بعض المقربين من المديرية أن المدير قال: ليتهم اقتطعوا لسانه بدلاً من مؤخرته، وربما سنتكفل نحن بذلك..!

لتوفيق لسان سليط لا يستقر في فمه، يقول ماله وما عليه، والجميع يحسبون حسابه، لكنه هذه المرة تمادى رغم أن القضية لا تستحق، بضع إصابات من بين مئات العمال والموظفين لا تشكل وباء أو كارثة، ولا يترتب عليها أية مساءلة. فقرار التغيير جاء بناء على المصلحة العامة:

(هل يمكنني مراقبة كل الناس؟! وكيف إذا حدث أمرٌ طارىء، ألا تحدث كارثة؟! الكراسي الخشبية لا تسمح بالنوم، إنها تلزمهم السهر والتيقظ، وتبقيهم في حال انتباه قصوى؛ الآن أستطيع أن أنام مرتاحاً!!).

***

"حين تبدأ الشمس انحدارها الغربي. أحس أن خيوطاً من الحزن تبدأ بنسج خمار أصفر على وجهها، يحمر رويداً قبل أن يلقي بها في البحر.. وهو ما يشعرني بالانقباض، منذ أن كان الليل غابة ظلمة كثيفة مديدة موحشة. وكنت أحس أن مغادرة القرية في مثل ذلك الوقت، حيث يبدأ الناس بالعودة إلى بيوتهم، وتبدأ القرية بضمّ أجنحتها، ولملمة أطرافها، استعداداً لخلاصها اليومي المأمول، تحمل شجناً مضاعفاً وأسفاً وندماً وقنوطاً. وكنت أفضل السفر في الصباح حيث الكثيرون مسافرون، وإن كان لا يطول. مدى سفر بعضهم اليوم منذ الصباح ونحن ننتظر هذه السيارة: (كانت تجرى لها عملية!)، حاول رئيس القسم التخفيف من مرارة انتظاري: (اشكر ربك أن عمليتها بسيطة كعمليتك؛ أما السيارة الأخرى فهي في العناية المشددة؛ أبعدك الله عنها.. وأبعدنا!).

فهل هذا سبب آخر لاكتئابي؟!

ولماذا السيارات الصحية مريضة، والسيارات الأخرى حديثة تتناوب قرب بيته– بيتها، وكل شيء آخر حديث؟!

لو كانت هذه هي المشكلة الوحيدة في هذه المنشأة الهامة لهان الأمر!".

خبطة قوية، اصطدم رأسه بحافة النقالة، تحسس بيده مكان الوجع، وبدأت أصابعه تتحرك على الجلد:

"كان شعري كثيفاً يحسدني عليه رفاقي، ويحاربني من أجله مدربو الفتوّة، ليس من أصلع في أسرتي؛ شعري بدأ يتناثر، الهباب يملأ أنفي، لم أعد أميز الروائح، عيناي تجعدتا من السهر والنوم في غير أوانه، ما أقسى أن تسهر والناس نيام؛ ليس سهراً لمسامرة النجوم وتأمل القمر، كما في أصياف قديمة، ولا لمشاوير العين البعيدة ومرافقة الدّراسات، سهر متواصل عنيد، ضجيج وأصوات آلات وأبخرة، أسهم وأزرار ملونة، وانتظار طارئ يتربص بعينيك آن تغفل، وبمصيرك حين يسرقك السهو، وبأمانك حين يراودك الشرود. قبل التحول الكبير، وفي الحالات العادية، كان ينام بعض عناصر الوردية، وآخرون يناوبون، ولم تكن مشكلة. أما الكراسي التي حلت فتحتاج لكي تتوازن فوقها إلى يقظة مستمرة، وحذرٍ متوثب.

كما هي الحال في هذه النقالة.

آه.. الكراسي اللعينة، سبب بلواي الحالية. قالوا: لسان توفيق كان السبب، هناك تأكيدات على السرية، وأنا أمسكت لساني!".

(هي ليست السبب الوحيد..!

أنت لم تكن مضطراً للورديات، يمكنك العمل صباحاً؛ تذهب مع الذاهبين وتعود مع الآيبين؛ لكنك رغبت بهذا النظام. تركته مرات وعدت إليه، لماذا؟! حوافزه كثيرة؟! تعويضاته أكثر؟! أنت قلت بلسانك: إن كل ميزة لا تساوي ربع ما يصرف من تعبٍ وسهر وعمر! إذن؟! غيرك ملزم بهذا النظام؛ شهادته ووظيفته! وأنت مخيّر؛ مع ذلك طلبته: أساعد في تربية الأولاد؛ الزوجة موظّفة، يمكن أن تبقى معهم أياماً قبل أن يحين موعد الوردية الصباحية التالية.

كان هذا سبباً مشروعاً، أما الآن فقد كبر الأولاد.. وذهبوا إلى المدارس، فما الذي يُلزمك بعد؟!

– نعم، هناك من يلزمك؛ ولكنك لا تعترف..!).

اللسان لا زال يتقلقل، والأفكار لا تتوقف:

(هذه الارتجاجات والاهتزازات أثرت على تفكيرك، فصرت تهذي..

جارتك المصون، نعم تلك الجارة المميزة؛ أنتما في الحارة فقط: زوجها موظف وهي غير موظفة، هي لا تحتاج إلى وظيفة، فإمكانية زوجها تغني.

أما أنت، فتحتاج راتب زوجتك الذي قد لا يكفيها ثمن ملابس ومصاريف انتقال. مع ذلك، فهذا يريحك من قلق انتظارها لك، والنقّ والشكوى منك وإليك. أنت لم تخجل من زوجتك أو زملائك، إذ لم تخبرهم. أنت خائف من أن يصل

الخبر إليها!.

لم يحدث شيء معها، وربما لن يحدث؛ لكن ما بينكما استطاع خلخلة توازنك، وتحريك الدم الذي خلته تجمد في عروقك. أما زوجتك فمنشغلة بوظيفتها وأولادها، وجارك مشغول بعلاقاته واجتماعاته وحساباته.

إنها فضيلة الورديات وبلواها..

حدقت غير مصدق ما ترى وتسمع: موسيقا هادئة، وجسد يتمايل عبر النافذة المفتوحة والستارة الشفافة؛ ظننتها الخادمة، كنت على الشرفة المقابلة، تحركت مبتعداً، وحين عدت كانت الموسيقا صاخبة، واستطعت أن ترى قطع ملابس وأشياء أخرى تتطاير.. حسبت الأمر عابراً رغم حديث زوجتك، لكنه تكرر، صار برنامجاً صباحياً حيث لا أحد في الحارة سواكما.

امتنع عنك النوم، تغضّنت ملامحك، زوجتك لاحظت ذلك، زوجتك التي تنام طوال الليل، وما تيسر من النهار، وأنت متخصص في السهر. قدرات وحيوية تخبو، إذ تساومك زوجتك عند كل اقتراب، على أمور شتى، ويمتصها المعمل والورديات، هذا النظام البائس، النظام الماتع؛ كنت تبرر: التنوع جميل كل يومين برامج جديد، لكن تعب المراقبة وساعات الجلوس الطويلة هدّتك، أتعبت عظامك، وشوّهت مؤخرتك، أخفيت ذلك عن زوجتك التي فرحت لسماحك لها بالنوم دون طلبات، ولم تفكر في الأمر

طويلاً، هي بعيدة عن كل ما يجري في هذا العالم، وغريبة وباردة وساذجة، مع ذلك فهي تتحمل مسؤولية الكثير مما أنت فيه. فهل تلومها أم تشكرها؛ أخبرتك بنفسها كيف دخلت إلى جارتها ظهيرة أحد الأيام، فتحت لها الخادمة، وأدخلتها غرفة داخلية، دهشت حين رأتها مع بعض صديقاتها متسمرات أمام شاشة صغيرة، وحدثتك عن قرفها وخروجها بعد قليل إذ شعرت بالغثيان، والحاجة إلى الإقياء..

هي التي لفتت انتباهك، حرضت فضولك، وأثارتك، فرحتَ تراقب البيت لتتعرف على صاحبته العابسة العنيدة، فكان ما كان. المشهد مثير يستحق كل تعب..).

ارتاح خده على إسفنج النقالة المريح كإسفنج المقاعد التي كانت:

(أنت معتاد على هذا الملمس، ومعتاد على سرعة استسلامك للنوم فوقه، وفراشك الزوجي يشبهه؛ فراشك الذي صار شوكياً لولاها! لم تقترب منها، ولم تبتعد عنها، هي معك في الليل الطويل، والنهار الطويل؛ تتراقص أمامك على العدادات والمؤشرات، وأنت متوتر قلق، متعلق بها خائف منها ومن زوجها الذي يستطيع أن يقذفك خارج هذه المنشأة خارج هذه الحارة، خارج الحياة، رغم أنه من عمرك ومستواك، لكن لديه الجرأة والحيلة والرغبات والإمكانيات المبسوطة كل البسط، وأشياؤك مغلولة إلى عنقك..!).

انسدل جفناه، تراخت يداه، وهن الارتجاج كأن الأرض استوت. هل اقترب من المدينة؟! هل انتهت الحفر والمطبات..

اللسان كان لا يزال عالقاً في الحلقة حين نظر إليه، اطمأن إلى أن الباب مغلق.

عاد خده مرتاحاً على الإسفنج الدافىء.

الاهتزاز يلطف، وموسيقا تصاعدت من مكان ما.. وحركة جسد يتمايل: تطايرت الثياب وأشياء أخرى، عذبت اللحظات، هو لم يشاركها الرقص، ولن يشاركها الآن، فليستمتع بمشهد عزيز قريب، وبعدها.. وبعد..

تسارع الإيقاع، ارتفعت وتيرة الأغنية، قهقهة تتعالى. عينان تتابعان ظلالاً تتمايل، إيقاع الجسد يتزايد، الجسد الذي يشف حتى لم يعد يميزه..

صوت بومي صاعق.. ارتجاج قويٌّ يدوّي، ولسانان ينفلتان بإيقاع واحد..

-تَمَّتْ-

□□□

تلك اللعبة..!

من أين جاءت تلك الـ..

لم يمضِ وقت طويل علي مع سوسن/ زوجتي، حتى صرنا إلى حال مختلفة عما كنت أحلم وأخطط وأتمنى..

حين التقيتها قلت: هذه من أنتظر، وهي التي ستحقق الأمن في مملكتي، وتضمن السلامة والهدوء لما تبقّى من الرحلة.

كان الاختيار صعباً، والبحث شاقاً، والوقت مليئاً بالأشواك والانفراغات؛ فأنا أخاف النساء، أخاف من عالمهن الغامض ليونةً أو قساوة، قبولاً أو امتناعاً. وأخاف أن أغرق في طمي العلاقة غير المحسوبة معهن؛ بالرغم من أني رجل يقر بالتكافؤ بين الجنسين، على أساس قبول الآخر كما هو لا كما يريد. ولكن بعد معرفة هذا الآخر، دون ترك ذلك رهناً للنصيب العجيب. هذا الذي جهدت للوصول إليه، ومضى الكثير من سنوات الرشد في ذلك، حتى خلت وسخر الكثيرون، وأكد الآخرون الذين (يريدون مصلحتي) أن معركة ولاية العهد لن تحدث في مملكتي التي إلى انقراض.. وكنت أقول محاولاً إخفاء الجدّية التي

تسللت إلى كلماتي:

– على الأقل، سأنجو من شتيمة ولي العهد الذي لن يجد عهداً يولى.

كنت راضياً بقناعاتي، منشغلاً ببحثي، محاذراً في خطوي وقولي.

ورضيت عن لقيتي، ورضيت أكثر عن تعلقها بي..

***

ذات حديث مسائي لطيف، قالت سوسن:

– ستزورنا سعاد وزوجها..

وتابعت، بعد أن لاحظت عدم اهتمامي:

– أتعلم ماذا قالتْ يوم عرفت أننا اتفقنا على الزواج؟! قالت: أنا فرحة من أجلك يا سوسن، فحازم كخليل زوجي طيب و..

قلت وقد لاحظت توقفها المباغت: وماذا؟!

– لاشيء.. لاشيء، طيب ويحبك!

– إذاً خليل يحب زوجته؟!

ردت بعفوية:

– كثيراً، ولا يرد لها طلباً.

لم أعلق أو أهتم، حتى لو كان ذلك حقيقياً لا دعائياً، خطر

لي أن أسألها كيف تعرفني، ولكن قبل أن أفعل قالت:

– حتى تعلم كم حدثتُها عنكَ!

وضحكتْ بمرح:

– كلهن يعرفنك ويهنئنني على نجاحي في الفوز بالعازب العنيد..

***

خلال تلك الزيارة وبعدها، كتمت شعوراً بعدم الراحة، وإحساساً بأن وراء هذه الدماثة واللباقة والأناقة ما وراءها. وقرأت خلف النظرات المواربة/ نظراتها بعداً برياً، وحول النظرات المترددة/ نظراته ملامح من فصيلة مدجنة. أما سوسن، فقد كانت في حال من النشوة والتوتر أضفت على اللقاء جوّاً من الحيوية، جعلني أحجم عن الإفصاح عن حقيقة ما استنتجته عند انتهاء الزيارة. أما ما جعلني أمتنع عنه في ما بعد، فهو رغبتني بعدم التشويش على علاقتنا التي لم تصبح رسمية إلا منذ وقت قصير،. وكي لا تبدأ المراهنات والحسابات على صدق حدسي منذ الآن؛ أنا الذي قضيت شطراً كبيراً من عمري أراقب، وأخبر، وأسأل، قبل أن أختار. وكان أن عرفت أنماطاً، وتعرفت على علاقات زوجية وغير زوجية وأدوار نسائية فيها كانت تبعدني أكثر فأكثر عن احتمال أن أقع على من أركن إليها. ولم يكن صعباً علي التكهن أن سعاد إحداهن، وهذا

ما يحفز آليات الدفاع للعمل من جديد، تلك التي لم تصدأ بعد، وخاصة حين بدأت أحس مع مرور الوقت تغيراً في طريقة حديث سوسن، وزادت لهجتها حدة، وطلباتها إصراراً، وصارت تمر عبر حديثها عبارات أوسع مما يتطلبه المعنى، وكلمات أكبر من خبرتها.

وعلى الرغم من الوساوس التي جعلتني أخمن أنني كنت مضللاً ومتسرعاً، وأن ما حصل من اقتناع وقبول كان من نتاج جهل الأربعين، كما ذرت بعض الأفواه، فقد آثرت التجاهل والسكوت والترقب والحذر.

لم تكن سوسن، كما أعرفه عنها، حادة الذكاء ولا قادرة على التحايل أو الاستمرار في تمثل الحالة؛ إذ سرعان ما ينسرب اسم تلك المرأة على لسانها، من دون سبب ظاهر، وقد يدور اسم خليل أيضاً؛ فتظهر الخلخلة في بنيان الحديث، الذي كان يزيده تغافلي، وصبري، وثقتي بقدرتي على إعادة الأمور إلى أساسها حين يجدُّ الجد.

***

كان زواجاً عاقلاً خلواً من مراهقة أو مصادفة أو قرابة أو صفقات. لم تكن سوسن صغيرة لأعلّمها، ولا مغرورة لأروضها، ولا بائسة لأخفف عنها، ولا منكوبة لأواسيها؛ ولم أكن– كما قالت مراراً– من النوع الذي يخشى من طيشه أو بطشه أو نزواته أو عقده؛ فسني ووظيفتي ورزانتي وسمعتي كفيلة– إضافة إلى اقتناعها بي– بأن تجعل السلام عنوان

علاقتنا، والوئام شعارنا، والتفاهم سبيلنا إلى أسرة لا تشغل الناس كثيراً بسيرتها، وهو ما لا يرضون عنه، ولن يقعدوا إزاءه مستسلمين.

***

تركت الأمور تسيل بسهولة ويسر على الرغم من أن التغير تسرب إلى سلوكها، وصارت بعض تصرفاتها لا تتناسب مع ما عرفته عنها. وتركت زوجتي تتحدث، وتتصرف، وتتمادى، وأنا منشغل عنها بالتفكير بما وراء تلك اللعبة التي بدأت أحس أنها تدار عن بعد.

وإذ أتساءل الآن عن السبب الذي دفعني للتريث وضبط النفس والمراقبة، لا أجد جواباً أكيداً يريح؛ لقد تحقق فعل الزواج الذي كان الهمّ الأكبر، وإن لم أصرح بذلك، وحالي الوظيفية مستقرة، وحياتي رتيبة مبتعداً عن طواحين الحياة التي تدور محمومة على حلبات كثيرة

جارشةً الأوقات والأشخاص والحوادث والخلافات والوفاقات والأسر والعلاقات والصداقات..

ولست منشغلاً بمقاييس الربح والخسارة، مقتنعاً بما تيسر لي، وما يمكن أن يكفيني شرَّ الحاجة والغنى. فهل كان لثقتي بنفسي، وخبرتي، وعمري، وسمعتي، دور في متابعتي فصول لعبة أتتني إلى حيث لا أتعب في ذلك، واستساغتني اقتفاء آثار بدأت تظهر في الزيارات المتكررة؟!

صرت أراقب خليلاً، وأسأله، لتجيب نيابة عنه، شارحة مستفيضة مادحة طيبته وبراءته. فتنتشي سوسن، وتتابع أقوالها، مؤكدة أن هذا ينطبق عليّ، وأنهما الاثنتين قد احتضتا بليلة القدر! ولم تنس سعاد حين تضحك لهذا أن تسدد إليّ نظرات لا تغيب معانيها عن ملاحظتي، ولا يمنع هذا من تغافلي، أو يحد من متابعتي الوقوف على حافة النهر، محاذراً أن أمد إليه ساقي، لأن السباحة ليست من هواياتي، ولابأس من متابعة جريانه الذي يبدو هادئاً، لولا أطراف دوامات تلفّ أوراق الشجر التي تُسلَّم أقدارها إليه.

كانت أصداء تلك اللقاءات تتتابع في البيت: إذ يدور كلام سوسن في المنحى ذاته، وبالطريقة نفسها، وبدا في حديثها ما يشد إلى متابعته، حتى أن ملامح جديدة صارت ترتسم على وجهها، وهي تتكلم، وتتضاحك، وتتباهى بمواهب تُكْتَشَفُ، وقدرات تتنامى، وكنت أنصت إليها مع طيف ابتسامة تغيرت معانيها، بعد أن كانت ابتسامة فخر ومباهاة وسرور باكتشاف اللعبة، والسخرية من عقل سوسن والنساء وأفكارهن. فقد صرت أحس إشراقات متعة تدغدغني، بين ثنايا حديثها، وفي منعطفات حركاتها، وصرت أحس اللذة في ابتكاراتها، أو إبداعاتي، بعد أن كانت البرودة والآلية والواجب والرغبة في الإنجاب وراء مقارباتنا التي تلت أيام العسل الفاترة. وهذا ما زاد من رضى زوجتي ورضاي الذي- كما أشارت مرات- يظهر على

ملامحي وحركاتي.

حين تأتيني بأكلة جديدة، أو رغبة بإلباسي ثوباً مميزاً يناسبني، أو تقترح مشاريع رحلات وتحسينات في الأثاث، كنت أ قرأ رسائلها تلك، وأنتظرها باهتمام، وأستقبل هداياها المبطّنة بمتعة انعكست على علاقتنا الزوجية، فازدادت حميمية، وهذا ما زاد من سعادة زوجتي وحيويتها.

صارت معي في البيت إلى درجة أنه لم يكن من الضروري لقاؤها أو زيارتها، لولا إلحاح سوسن التي تشهد دائماً أنها تحبنا، وتتمنى لنا كل الخير، وكان هذا كلامها هذا، وتأكيدها، يسري بعفوية وطيبة، أكدتها سعاد في إحدى الزيارات حين قالت موجهة الحديث إليّ:

– أنت لديك كنز، كما أنا، إن سوسن طيبة وبريئة كخليل تماماً.

وفي حين احمر وجه خليل، وأخفض رأسه خجلاً، وهز ركبتيه، حدث لسوسن ما لم يكن بالحسبان، فقد انتفضت، وغادرت الغرفة، ولم تعد إليها رغم إصراري، فاعتذرتُ للضيفين غير الغريبين وعكةً مفاجئة أصابتها.

بعدها توقفت عن الكلام، صمتت، وصمت كل شيء لديها، وأصاب الاصفرار وجهها، وانقبضت ملامحها، وتلاشى كل ما كان من حياة فيها. ظننتها مريضة، أو أن بها حالة من حالات اضطرابات الأنثى، لعله الحمل الذي ننتظره، لكن الأمر

كان غير ذلك، ولم تنفع محاولتي التخفيف عنها، أو الاستفسار عن السبب الذي أورثها هذه الحالة.

وحين زارتنا سعاد مستفسرة عن غياب سوسن زميلتها في العمل وصديقتها المزمنة، لم تنظر في وجهها، ولم ترحب بها، وبدا الضيق قارساً على ملامحها، ورأيتها تلاحق خليلاً المنكبّ يراقب حذاءه وأقدامنا، وتسترجع النظر إليها وإليّ منكمشة منقبضة.

حاولت تجاوز الموقف، وبدأت أشرح للزائرة أن الأمر عارض طبيعي يزول، راجياً أن تساعدني في إقناعها بمراجعة طبيب بما لها من دالَّة عليها، لطول العشرة والإلفة.

قالت لها: أنت لا تستاهلين المرض، ولن نتركك له، أنت مهمة بالنسبة لنا، أنت لا تقدرين بثمن، كخليل تماماً.

قامت من رقدتها كأن مساً أصابها، انفجرت في وجهها، قالت في حقَّها كلاماً فاجأني وأذهلها، وطردتها، ثم ارتمت على أرض الغرفة فاقدة الوعي.

انسحبت سعاد وتابعها، وتركاني أنا الحذر العصيّ الخبير، عاجزاً عن التفكير أوالتصرّف.

❐❐❐

حليقة رأس

لست متأكداً تماماً إن كان تّشبهاً بهتلر– مالئ الدنيا حرباً وانشغالاً في ذلك الحين – كان والدي يترك لي ذؤابة مميزة عندما يقصّ شعري، أو أن ذلك ليس أكثر من ترضية لي، إذ يقول: "سأقص شعرك وسأترك لك (عرّوبة) يحسدك عليها رفاقك!" ربما لأن انقباضاً، وكآبة، ورفضاً مكبوتاً، سرعان ما ترتسم جميعها على وجهي وحركاتي حين تحين الساعة. ولعل السبب في هذا أني كنت أفضل أن يقوم بهذا العمل أبو إبراهيم حلاق القرية الوحيد. لكن قلة البيض عندنا، واعتداد والدي بنفسه كانا يفوّتان عليّ هذه الرغبة التي تحمل معها إجازة قصيرة كافية لمتعة إضافية، قبل العودة إلى حارتنا البعيدة، أو أن السبب هو المقص الذي ليس له علاقة بالقص، بل يصلح (ملقط

شعر)– رغم أني لم أكن أعلم عن هذا الإختراع شيئاً بعد– إذ ينتزع كثيراً من شعر رأسي في كل مرة. ولو لم يكن شعري غزيراً وقويّاً، لكان دخل في عهد الانقراض من زمن طويل؛ كذلك كان شعر "قطّوش"، عنزتنا الشامية، قوياً وغزيراً. وكذلك كانت حالتها من الانقباض والقلقلة والنط والتحرك والتصويت، أثناء استخدام المقص ذاته، في المناسبة عينها. ولم أعد أذكر إن كانت تسترضى (بالعروبة) نفسها!

مع ذلك فربما كانت أفضل حالاً مني، فبعد انتهاء الطقوس المؤسية، تنسى ما حصل معها، ولا تستذكره إلاّ حين تراني، مرة تالية، مطأطأ الرأس على كرسي القشّ المُهَلْهَل، أنشج بصوت خافت. فتشد الرباط من يدِ أمي، أو تحاول انتزاعه من وثاقه، وتتحرك حركات هيستيرية، كأن حشرة مشاغبة حطت على مؤخرتها فجأة في ضحىً حار، أو أنها استشعرت هزة أرضية قادمة..

وحين نلتقي بعد وقت قصير في الحرش القريب، أحسدها على نسيانها، إذ تكب على قضم أغصان الشجيرات الفتية الكثيفة ورعي الأعشاب بينها بنهم شديد.

بينما أنا أتحسس مواضع الوجع الذي يتوزع جلدة رأسي كلها، وقد يشمل أذنّي ورقبتي أيضاً. وأحس خشونة الشعر المقطوع بلا انتظام، تماماً كما هو على جلد هذه المخلوقة المسكينة المتسامحة الفخورة بذؤابتها، أو أني أنا الفخور

بها، لأنها تذكرني بذؤابتي التي أستطيع أن أرى أطرافها حين أشدها بيديّ إلى الأمام، عند كل محاولة تخفيف عن آلام مضغوطة. وأتغاضى للحظاتٍ عن شكلها الناشز عما يجاورها، والذي أحس تدرّج الأبيض والأسود فيه، من إمرار راحة كفي، أو عبور النسيم.

ليس هذا وجه الشبه الوحيد بيني وبين (قطّوش)، بل هناك أمور كثيرة أخرى؛ ففطنتها وطاعتها وانقيادها رغم بعض محاولات التمرد الفاشلة، وغصتها التي تظهر دموعاً في عينيها وبحة في صوتها وقلقاً في ليلنا المشترك، كلها أمور تدعو للدهشة. حتى أن وجهها المتطاول الذي يبدو خاصاً بأبناء جنسها، يمكن أن يشبهني، هذا ما اكتشفته حين حان طيف التفاتة مني على ظل وجهي الذي يرسمه ضوءُ السّراج على الحائط المبَيّض.

فبدا ذقني وأنفي نتوأين متطاولين لا يبعدان كثيراً عن بعضهما. ولو التقيا بأي احتمال، لكان (بوزاً) عنزياً حقيقياً.

لكني لا أستطيع دفن رأسي في الأرض كما تفعل هي، رغم أن هناك رغبة بذلك، فأدفنه بين كفّي أحياناً، وبين ركبتيّ أحياناً أخرى؛ حتى أذناها المقصوصتان القصيرتان جداً، كأنما حدد طولهما بحيث يكون كطول أذني. أما الذنب فمقصوص أيضاً، مما يترك عورتها مشرعة دون خجل، ولعل هذا هو الاختلاف الوحيد، إذ أن (بنطالاً) – وإن كان مجمعاً من قطع مختلفة الألوان والأشكال–

يسترني وربما كان شيء ما مضغوطاً تحت الجلد، ضمُر من زمن بعيد، قد ينبتُ ذات يوم!

أيام طويلة وساعات مديدة قضيناها معاً وأنا و(قطوّش)، حتى أني نسيت مَن منّا يرافق الآخر، وموجودٌ من أجله؛ فقد صارت تعرف الدروب، بتعرجاتها، إلى المراعي الصباحية والمسائية. وحين أشردُ قليلاً تنبهني بصوتها المتقطع، حتى إذا ما تأخرنا في العودة قبل الظهر أو عند الغروب، فإنها تطلق أصواتاً متتالية، ثم تتجه صوب البيت، فأتبعها ببلادة أو حياديّة! أما صوتي فقد استخدمته في الرفض مراراً، وكان قويّاً حاداً ، ثم صار أجش متقطعاً، ثم توقفت عن التصويت، وتركت لصوتها المتهدّج التعبير عما في داخلي!!

***

خلت بعد سنين أن زمن قطوش قد انتهى، لكني تذكرتها حين تلقيت دعوة السَّوق إلى الخدمة، فقد كانت أمي تقول: هيا.. لقد حان وقت السَّوق؛ ألا ترى الشمس تكاد تطلع، أو تغيب؟! وتذكرتها وبكيت بدموع صامتة، حين قصّوا شعري، بعد دقائق من دخولي تلك الفسحة المسوّرة الكابية، بشكل لم يكن ليختلف كثيراً عن الطريقة التي تعودتُها، سوى أن القص كان سريعاً، والآلة لا تصلح ملقطاً للشعر! وحين نظرت حولي لأرى شكل (العرّوبة) على رؤوس زملائي، لأتكهن بها على رأسي، علمت أنْ لا

ذؤابة ولا شعر ولا من يحزنون. وتأكدتُ من ذلك، حين أمررتُ أصابعي فوق جلدة رأسي التي تشبه صخرة ناعمة باردة. وتذكرتها، حين كانت صفات الحيوان تهطل علينا بسبب أو من دونه. وكنا نزيدها نحن بعد كل حفلة قصّ؛ إذ تبدو رؤوسنا الجرداء ذات الأحجام المختلفة، والتحدُّبات المتنوعة، والآذان الملتصقة أو المشوّحة بعيداً عن الرأس، والتي تشبه آذاناً غير بشرية، أو مشروعاً لها، فتعلو التشبيهات والتعليقات: أنت كالصوص، وذاك كالحمار، وآخر كالخروف. وسمعت أحدهم يشير إليّ ويقول: وهذا كالجدي! فعادت إليّ ذكرى (قطوش) وذريتها المتعاقبة من جديد.

وكثيراً ما تساءلتُ عن سر هذا التوافق بين ما يفعلونه بنا، وبين ما كان يفعله أبي معي ومع (قطوّش)، ولم أكن أعلم أنه عقوبة، إلا حين كان يساق أي منّا إلى الحّلاق، بعد أية مخالفة، مهما كانت صغيرة أو كبيرة. ومهما كان طول الشعر، حتى لو لم يكن إمساكه ممكناً، فإن آلةً حادة شرهة، ويداً حاذقة، وحيويّة دافقة، وشبقاً محموماً، تعيده إلى الصفر.

كان العداء للشّعر شرساً ومسعوراً يصل حدود المرض، فالتهديد بالحلاقة وتنفيذها سيد التدريب، خاصة قبل الأعياد والإجازات المقررة. والبحث المحموم عن أي أثر للشّعر على الذقن، وعقوبة ذلك، عنوانه كل صباح.

مما خلق لدى الكثيرين رغبة في تربية الشوارب، حتى تكاد تحتل نصف الملامح. أما أنا فلم أفكر في هذا، ربما لأن وجود الشاربين يؤدي إلى خسارة بضع ثوانٍ قيمّة في الصباح الباكر، أثناء الحلاقة اليومية، أو تضامناً مع (قطوش)، لكن شعراً كثيفاً تركته ينمو- وأظن أن كثيرين تركوه مثلي- في أماكن أخرى، لا يستطيع أعداء الشعر ملاحظته أو ملاحقته، حتى أثناء دروس الرياضة، أو عقوبات التعرّي شبه الكاملة!

***

حلاقون كثيرون سلمتهم رأسي يتلاعبون به، يرفعونه ويخفضونه، يميلونه ذات اليمين وذات الشمال. يبتعدون عنه ويقتربون، يحفرون جلدته بأدواتهم، المسرعون منهم لازدحام المنتظرين، أو المبطئون الذين يتسلّون بقضم الوقت لانقطاع الزبائن، أصحاب المحلات المهجورة والكراسي القديمة، والأدوات الصدئة، والمرايا المهشمة، والحكايات العتيقة، الذين يبدؤون العمل دون مقدمات أو رتوش، أو المزيّنون ذوو اللافتات الزاهية، والواجهات المغرية، والآلات المتنوعة، والأنوار المشرقة، والمرايا المتقابلة، والصور المعلقة عن آخر الموضات والتسريحات، الذين يغسلون الرأس دون رغبتي أو مشورتي، ويرشون عليه الروائح الزكية.

كل هؤلاء وأولئك، ورغم الثرثرة، والكلام عن المقدرة

والتاريخ العريق أو الحداثة المدهشة والمهارة وشهادات التقدير والإطراء والاستدلال من المعارف والأصدقاء، لم يستطع أي منهم أن يقنعني بالشكل الأثير لرأسي، والوضع المُرضي لتسريحتي.

صار هماً لديّ وانشغالَ بال ووسواساً. وصرت أنّى مشيتُ أنظر إلى تسريحات الناس، أتلفت في كل الاتجاهات، أراقب كل أوضاع الشعر. وأحاول أن أركز على شكل معيّن، أنقله شرحاً متعثراً إلى الحلاق التالي. فتكون النتيجة شكلاً آخر، فيقول: شعرك لا يلائمه إلا هذا القصّ، أو رأسك يلزمه هذا الوضع، أو وجهك تناسبه هذه التسريحة. وصرتُ مضحكة أمام الناس، مرة إلى اليمين، ومرة إلى اليسار. ومراراً نحو الأعلى، أو الأسفل، وهل ينفع الاحتجاج أو العتاب أو الوجوم؟!

جربتُ كل الحلاقين في الحارة والمدينة والمدن التي أزور. صرت أبدأ من أول الشارع إلى نهايته، دون تمييز، حتى الذين ارتحت إلى أسلوب تعاملهم، ونتائج عملهم مرة، يتغير الحال في المرة الثانية؛ فأقول: إن ما حدث كان مصادفة، وليس عن دراية وحسن تدبير.. حين أنظر إلى المرآة، وأشاهد ما تفعله الأدوات الشرهة بشعري، يهطل اكتئاب العالم على وجهي فيسألني بعض المنتظرين أدوارهم: هل تتألم يا هذا؟! أهزُّ رأسي نافياً؛ فيصرخ فيّ الحلاق: اهدأ! لقد شوهتَ كل عملنا..!

وفي مرات كثيرة، وبعد إمعان النظر في وجهي المكفهر، غادر بعض الحاضرين ولم يعودوا. وتذرع بعضهم بأعمال مهمة نسيها، أو مواعيد لا يمكن التأخر عنها أكثر من ذلك. فيشيعه المزيّن بنظرات حاقدة، وتمتمات لا تحمل كلاماً جميلاً. وربما لعن ساعة الشؤم التي أتيت بها إليه..

***

إذا كان معظم فلاسفة العالم وعلماؤه الذين رأيت صورهم وأشكالهم، يتركون شعورهم على حالها رؤوساً وذقوناً؛ لماذا لا أفعل مثلهم؟! ليس لأني فيلسوف أو عالم، بل لأني، وبكل بساطة، لا أرتاح لما يفعلونه برأسي! ولست مقتنعاً بالحلاقة من أساسها، أو أصبحت كذلك؛ تركت شعري ينمو بهدوء، ويأخذ أمداءه اللازمة دون توجيه. أحسست بارتياح وبانزياح همٍّ كبيرٍ عن كاهلي. ولم أعد أشغل نفسي برؤوس الناس كثيراً.

لكن الأمر لم يستمر على هذا الحال، فقد صار يلزمني وقت طويل لغسله، وصرت أشعر بثقله، وتشابكه، وبكثافة الغبار والدخان فيه. وفي أيام كثيرة حين أعود بعد يوم مضنٍ، أتغافل عن (شوشتي) كما صار يسميها الناس. وأتثاقل عن القيام بما يلزمها من تنظيف وتسريح. ويعوزني الوقت الصباحي لذلك. فتصبح متداخلة ومعقودة بحيث يصعب حلها أو تهذيبها. وصارت محطة للحشرات، ودريئة

للكلام الذي تكاثر حتى صار حملاً ثقيلاً آخر، فوق رأسي وداخله.

***

من المسؤول عما يحدث؟!

أأنا الذي جنيتُ على نفسي وشعري؟! أم أبي ومقصه البدائي العنيد؟! أم اختلاف الأيدي والأدوات التي عبثت به؟! أم أنه قضاءٌ وقدر؟!

صحيح أني أنا الذي حلقته آخر مرة، بعد ما صار غابة موحشة من الديس والشربين والشوك. وصار عاراً عليّ، وعلة في نفسي، وحملاً أنقضَ رأسي. نعم، أنا الذي حلقته، وتذكرت أبي و(قطوش)، حين استخدمتُ مقصاً قد يصلح لشيء آخر. وصار رأسي مساحة جرداء غير مسواة جيداً، ودُون ذؤابة. وعاد كرأس الجدي.. أخفيتُه بأنواع مختلفة من أغطية الرأس: كوفيات وقبعات صغيرة وكبيرة، سألني الكثيرون عن الجناية التي حلقوا لي رأسي بسببها!

قعدتُ في البيت لا أبرحه، منتظراً نموّه، لم أفكر ماذا سأفعل به في المستقبل، ولمن سأسلمه، أو هل سأدعه مرة أخرى على سجيته. بل إن شيئاً آخر شغلني، فقد نما قليلاً وببطءٍ شديد ثم توقف عن النموّ. ثم بدأ يتساقط رويداً رويداً.

لم يستطع الأطباء، ولا الأدوية الشعبية أو المعملية، إيقاف تساقطه الذي يزداد بإطّراد، وأزداد معه عزلة وحيرة وأسىً وقنوطاً..

❐❐❐

الاحتفال

انتصف العمر أو الحلم أو التوق أو يكاد..

مقصّ المسافة والوقت تتوالى إيقاعاته على الدرب الطويلة بفتور؛ السفح، بوجهه المجدور من آثار الأقدام والصخور، ما يزال منتصباً غير عابئٍ باللهو المستمر، أو اللعبة المكوكية المملة؛ سجلُّ الندم يوالي تدوين تواريخ ووقائع وأيامٍ وثوانٍ تُحسب على الناس بطرائق مختلفة. والصبر جزيرة يداهمها المدُّ من كل الجهات، وتكاد تختنق.

مع ذلك.. فقد أتت الدعوة للاحتفال!

الدعوة التي لا تخطئك مهما تكومتَ في الركن الأكثر إظلاماً، الدعوة التي لا تتأخر، والتي صارت

تلبيتها هماً يضافُ إلى الزوّادة المترعة، الدعوة التي لا تستطيع لرفضها سبيلاً.

ترفض!! وكيف ترفض؟! والاحتفال منتظرٌ ومرغوب ومدهشٌ ومثيرٌ ومليءٌ بالمفاجآت السارة.

هذا ما جاء في الدعوة، وهذا ما تثرثرُ به الألسنُ، وتلتقطه الأسماع، وتعبّر عنه العيون. ولم يبقَ إلا أن تقتنع أنت بذلك، أو تُقنع نفسكَ به، كما في كل مرة، كمقدمة للذهاب!

***

أي احتفالٍ هذا؟! وأية إثارةٍ أو جدّةٍ أو إدهاش؟!

الوجوه هي الوجوه، بعناصرها السليمة أو المشوهة، الناتئة أو الغائرة السافرة أو المقنّعة، هي نفسها حتى الأقنعة باتت رتيبة ومفهومة.

والهياكل هي الهياكل باهتزازها الماجن أو سكونها الوقور، بضحكها الهيستيري أو مساماتها المرسومة بإتقان أو وجومها المتحجرّ، بملامحها الغامضة أو الطبيعية أو المبرمجة، المنشرحة أو الكسيرة. أفتش بين الوجوه عن وجهٍ جديد، أو عنصر جديد في وجه قديم، عن قناع جديد. أفتش بين الأحياء عن أمرٍ مميز، شيءٍ أو شكلٍ أو خيال يبرر مجيئي. أبحث في كل ما أسمع عن إيقاع خاص يبعث في المادة الحية تحريضاً على

حركة مبتكرة، أو رقصة مغايرة. وأمعن السمع في الأصوات التي تختلط، والألحان التي تتشابك، والضجيج الذي يمتلك ناصية الوقت والمكان دون أن يظهر أي شيءٍ يشي بمثير قادم، أو تومض إشراقة تنبئ بشعاع من كوكب جديد.

الخيبة بدأت بنصب شباكها التي أخذت تضيق شيئاً فشيئاً بينما يشتد أوار الاحتفال..

***

كل شيء يتكرر..

الشمس، بضحكتها المتبجّحة، تُشرق وتَغْرُبُ بانصياع، دون أن تقطب جبينها قليلاً، لتفكر بجهات أخرى يمكن أن تأتي منها أو تذهب إليها.

الريح التي تملك الأمداء كلها، تعيد، في كل مرة، حديثها ذاته، ونبوءتها عينها، همساً أو عربدة أو صراخاً؛ كلُّ نبضة تعيد ضخَّ القدر ذاته من الدم اللازم والكافي لاستمرار هذا الاكتئاب، أو القلق، أو الحيرة، أو الأسئلة؛ كل دقّة من الساعة المشنوقة في الجدار، صدى باهتٌ للدقّة التي سبقت، ونبوءةٌ باردةٌ للدقة التالية؛ كلّ يوم يشبه سابقه والذي يليه؛ كلّ عام أضمومةُ قشٍّ توضع على القبر الذي يتعمق ببرنامج غامض.

كل شيء يتكرر..

الحركة المجترة، الدوران البليد، العبور العقيم، الصوت الذي جفاه الصدى.. الضوء الذي يبعثر أشعته، ويتباهى باستعادتها انتثاراً أو انعكاساً، الأحداث والأفكار والزمن المعاش تسترجع في الذاكرة فرحاً أو حزناً، فَيُختصرُ العمر مرات، وتكرر العادة ما يجري بسهولة ويسر، فتتأجل أو تلغى احتمالات التجديد، وتنزوي الرغبة مكبوتة ضائعة.. حتى الألم الذي يشارك في صياغته ألف سبب وسبب، لموجاته طعمٌ واحد.

هل توقف الخلق، وضاع الابتكار؟! هل اكتملت عناصر التجربة؟! وهل اكتُفِيَ بهذه النماذج وهذه الأدوار، وأماكن العرض هذه وتلك؟! وماذا أفعل أنا المنتظرَ مفاجآت لا يهم إن كانت سارة أم لم تكن؟!

وماذا أصنع برغبتي القديمة الجديدة الملحّة في تغيير ترتيب الفصول؟! أو إضافة فصول وإلغاء أخرى؟! وحشر أيام السنة في بوتقة يوم، أو فرد ثواني اليوم الواحد شهوراً وأسابيع..؟! وماذا أفعل بقدميّ اللتين تتأففان من عبور المفازة ذاتها مرة أخرى، وتفضلان المسير في اتجاهات جديدة؟! وماذا أصنع بعيني اللتين ملّتا المشاهد وصار لا فرق عندهما الفتح أو الإغماض؟!

كل شيء يتكرر..

المفاجآت بهتت، والدهشة غابت، والإثارة ماتت، والتوقع ينوس. أين مفاجآتكم يا أصحاب الدعوة؟! خدعةٌ أم استهتارٌ أم استدراج أم عادة؟! كلّ مرة أقول: إلى هنا يكفي، لن أخدع ثانية، هذه آخر استجابة وآخر حضور للاحتفال. وحين تأتي الدعوة، وأقرأ الإعلان عن الإثارة والجدّة والمفاجآت، تخونني الإرادة، وتراودني الرغبة في الاختبار من جديد، لأقع في الفخ ذاته، وأغرق في طمي الخيبة فأندب حظي وألوم نفسي بالطريقة عينها أيضاً.

وما يزيد الأمر عسراً، والوقت تآكلاً أن الصوت لا يني يصيح بعد كل فقرة مجترّة: انتظروا مفاجأة مهمة، المفاجأة التي تدهش قادمة بعد قليل، تيقظوا! احبسوا أنفاسكم! تمالكوا أعصابكم واستعدوا!! وتضج الساحة بالتصفيق والهتاف والصفير، ردودَ أفعالٍ واحدةً لكل ما يقدّم من فقرات دون تمييز: كلماتٍ أو خطاباتٍ أو غناء أو رقصاً أو تمثيلاً.. فيما تضجّ في رأسي عبارات الشتيمة والقدح لصاحب الصوت، وللمشاركين في التقديم، والحاضرين أيضاً، وبالعبارات ذاتها! وأحسّ انقباضاً، لأن عبارات جديدة أشدّ قدرة على التعبير عن غيظي، وفقدان أعصابي، وقلة حيلتي وعجزي، تأبى أن توافيني. وأفكر في التعويض عن هذا بفعل شيءٍ يكون مفاجأة حقاً لأصحاب الاحتفال، والمحتفلين، ولي أنا

على الأقل.

سأقوم إلى الأضواء أفجرها، وأثقّب الطبول وأمزّقها، وأكسر المزامير، وأدمّر الآلات الحديثة أو القديمة، سأقلب الطاولات والكؤوس وأركض كالمجنون.

وما إن بدأت بالحركة الهيستيرية، حتى ضجّ الحاضرون بالتصفيق والهتاف والصفير، وحملوني على الأكتاف فرحين مسرورين، ورقصوا وغنوا وهللوا لمن فاقهم سكراً وانتشاءً، واشتعل الحماس من جديد..

وفكرت في الخروج والسير كيفما اتفق، لا يهم الاتجاه، بل الأهم الانسحاب أو الهرب أو الخلاص القريب.

هذه ليست المرة الوحيدة التي أفكر فيها بهذه الطريقة، بل إن هذا يتكرر أيضاً منذ الدعوات الأولى التي كان الحماس لها، والاندفاع إليها، لا يُحَدّان.

لكن الذي يستطيع إقناعي بالحضور في كل مرة، يقنعني أيضاً بلا منطقيةِ الخروج قبل انتهاء الطقوس، ولا عقلانيةِ التفكير بالاحتجاج بهذا الأسلوب، وشواذِ مثل هذا التصرف؛ وأن لا بأس من الانتظار لاحتمال أن يكون في ما سيأتي ما يريح النفس من عناء اللوم، ويخفف من أعباء الوقت التالي بعد نضوب الاحتفال.

الآن يبدو تصميمي صلباً، وعنادي راسخاً، وفعلي

أكيداً.. وهممت بالتنفيذ.. ووقفت متأهباً للمشي أو الهرولة.. لكن الصوت عاد ناصعاً فتيّاً واثقاً:

ترقبوا!! المفاجأة المدهشة قادمة.. تيّقظوا!! زبدة الاحتفال في طريقها إليكم.. ستلقَون ثمن انتظاركم.. تمالكوا أعصابكم واستعدوا!

فقعدت ساهماً.. حائراً.. منتظراً..!!

□□□

المحتوى

أحمر.. أبيض 5
علاقة! 15
الشاي البارد 23
الموت حق..! 33
الفحيح 39
مطر آخر الوقت 51
النقَّالةُ 63
تلك اللعبة..! 73
حليقة رأس 81
الاحتفال 91

❑❑❑

صدر للمؤلف

1. هامش الحياة – هامش الموت – قصص قصيرة –اتحاد الكتاب العرب دمشق 1991.
2. الاحتراق– قصص قصيرة – مطبعة الشام دمشق 1992.
3. ظلال النشوة الهاربة – قصص قصيرة– وزارة الثقافة دمشق 1994.
4. المدار – رواية – وزارة الثقافة دمشق 1994.
5. تضاريس على أفق شاحب – شعر– مطبعة إياس – طرطوس 1996.
6. دُوَار الصدى – قصص قصيرة – دار الحوار – اللاذقية – 1997.

□□□

رقم الايداع في مكتبة الأسد - الوطنية

أحمر... أبيض:قصص قصيرة/ غسان كامل ونوس-
دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1998-
100 ص؛ 24 سم

1-813.01 و ن و أ.
2- 813.009561و ن و أ
3- العنوان
4 - ونوس

ع -98/12/2022 مكتبة الأسد

هذا الكتاب

مجموعة قصصية قصيرة، تتناول الإنسان بهمومه وأحاسيسه ومشاعره.

عالم قصصي شفاف ورشيق وأنيق كأنه يقطف لغته من عالم الندى ذاته.

تحتفي قصص هذه المجموعة بالعلاقة الأزلية بين الرجل والمرأة وما يحيط بهذه العلاقة من تشابك وتعالق لتصب في مجملها في مصلحة الأسرة.